

البعد الاجتماعي للعنف

الدكتورة شعاع هاشم اليوسف

نشر في كتاب

ظاهرة التطرف والعنف..

من مواجهة الآثار إلى دراسة الأسباب

(سلسلة مشروعات ثقافية)

مركز البحوث والدراسات

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، الطبعة الأولى محرم 1428 هـ موافق يناير 2007م



أعيد نشره إلكترونياً في رمضان 1439 / مايو 2018

البعد الاجتماعي للعنف

الدكتورة شعاع هاشم اليوسف (*)

للأديان الدور الأهم في حياة البشرية، لأنها في اعتدالها تصبح من أهم مسببات الحياة الطيبة والهدوء النفسي البعيد عن العنف. وقد توصل الباحث إلى أن الإيمان العميق بالله تعالى وتقوية الصلة به من أقوى دواعي الشفاء من أخطر مسببات العنف والتطرف.

تتعدد الأسباب المؤدية لمظاهر العنف المختلفة، ولعل من أهمها المشاكل الاجتماعية وما تؤدي إليه من انحرافات نفسية وعقد سيكولوجية تدفع الفرد الذي يعاني منها لانتهاج سياسة العنف في حياته الخاصة والعامة. إن الدخول في تلافيف هذه الأسباب وآثارها السلبية يحتاج لوقفة طويلة مفصلة بل وربما لتأليف كتب خاصة بها، ذلك لأن موضوع العنف الاجتماعي يتداخل مع مواضيع كثيرة ومتنوعة، إلا أنه يمكن حصر المشاكل الاجتماعية المسببة للعنف حسب أهميتها في المحاور الأربعة التالية:

أولاً: البطالة: لا شك في أن البطالة من أهم الأسباب المؤدية لمظاهر العنف المختلفة خاصة بعد فشل مشاريع وخطط التنمية في توفير فرص العمل الكافية. ومع تغيب المؤسسات الخيرية الرسمية والأهلية والاجتماعية عن الاتحاد في مواجهة البطالة فإن ذلك قد أدى إلى تفاقم كل من الفقر والثرء وكلاهما مسبب لجنوح الأحداث. وقد

(*) باحثة وأكاديمية.. (قطر).

ساعد الفساد الاجتماعي على ذلك، فقد أتاح الرفاهية لبعض الأفراد على حساب الطبقة الفقيرة، مما أدى للشعور بالظلم وبالتالي إلى اللجوء للعنف للحصول على بعض الحقوق.

ثانياً: غياب الحوار الهادئ والتسامح الديني والنظرة الإنسانية: غياب الحوار الهادئ والتسامح الديني والنظرة الإنسانية، أثار موجات من التعصب الديني والنظرة العنصرية في اللون والجنس تلتها موجات قوية من العنف في معظم أنحاء العالم.

ثالثاً: زيادة معدلات الطلاق وزيادة العنف الأسري: في العصر الحالي تتفاقم معدلات الطلاق ويزداد العنف بين أفراد الأسرة الواحدة مما يؤدي للتفكك الأسري والتشرد الفكري والنفسي بل ربما للتشرد الجسدي أيضاً. في ظل التشرد يتم الانسحاب من المجتمع والحكم عليه بقسوة ثم التحول للعمل السري العنيف.

رابعاً: التقنيات الحديثة وسهولة الوصول إليها: قد يتم اكتساب وممارسة العنف من خلال وبواسطة التقنيات الحديثة التي أصبح الوصول إليها سهلاً وميسراً، وهي بلا أدنى شك قد سهلت سبل ووسائل العنف المتنوعة إما بالتقليد أو عن عمد وتخطيط.

وسوف نقوم بشرح هذه المحاور، كل على حدة، على النحو الآتي:

مسببات العنف

- أولاً: البطالة⁽¹⁾:

لا شك في أن البطالة من أهم الأسباب المؤدية لمظاهر العنف المختلفة خاصة بعد فشل مشاريع وخطط التنمية في توفير فرص العمل الكافية. ومع تغيّب المؤسسات الخيرية الرسمية والأهلية والاجتماعية عن الاتحاد في مواجهة البطالة فإن ذلك قد أدى إلى تفاقم كل من الفقر والثراء وكلاهما مسبب لجنوح الأحداث. وقد ساعد الفساد الاجتماعي على ذلك فقد أتاح الرفاهية لبعض الأفراد على حساب الطبقة الفقيرة مما أدى للشعور بالظلم وبالتالي إلى اللجوء للعنف للحصول على بعض الحقوق.

وتعتبر البطالة من أهم المشاكل التي تحدّد العالم برمته، وهي مشكلة تتفاقم كل يوم بسبب زيادة عدد سكان العالم أولاً، وثانياً بسبب سيطرة الآلة في جميع مواقع العمل. هكذا يتحير الشاب في كيفية صرف طاقاته وتحقيق ما تصبو إليه نفسه. وتبرز البطالة كأهم مسبب للانحراف نظراً لتوفر الوقت متزامناً مع قوة الشباب ونشاط الجسد والأعصاب.. ومع ارتفاع معدلات البطالة في العالم لا بد من توقع ازدياد مظاهر العنف، وكما قال الشاعر أحمد شوقي:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

- الشباب المدمن والجنح:

(1) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية: سيد عويس، لا للعنف (دراسة علمية في تكوين الضمير الإنساني)، دار الهلال (454) 1988م؛ عطية عامر، خرافة الحضارة الأوروبية (مكتبة الأنجلو المصرية، 1990م)؛ إيان كريب، النظرية الاجتماعية، ترجمة محمد حسين غلوم، عالم المعرفة (244) 1999م؛ جوزيف كاميليري، أزمة الحضارة، ترجمة فيصل السامر (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، 1984م).

يعاني العالم أجمع من تزايد جنوح الأحداث لأسباب كثيرة منها ما يتعلق بالبطالة أو بالعوامل الخارجية مثل البيئة المحيطة بالأحداث والمستوى الاقتصادي ووسائل الإعلام والسينما وانتشار المخدرات وغيرها من مشاكل الحضارة الحديثة. وقد يكون الانحراف في الجانحون ضحية لتوجيه خاطئ من أسرهم، وعليه يمكن حصر أسباب الانحراف في خمسة محاور هي:

الانحراف المعرفي بسبب الجهل بقيم الصواب والخطأ؛ ثم الانحراف التقليدي للأقران ويسمى الانحراف العربي وهو تقليد الأصحاب لبعضهم بعضاً؛ ويليه الانحراف الشهواني الذي تتوخى منه المتعة واللذة وهو الذي تساهم التقنيات الحديثة في تفشيه بين الشباب؛ ثم الانحراف الوسواسي الذي يترايط مع قيم أخرى يسعى إليها المنحرف؛ ثم أخطرها الانحراف القيمي الذي يعتقد المنحرف أنه يحقق بانحرافه القوة والسيادة.

وانحراف الأحداث يختلف عن الجنوح، فالانحراف أو الخروج عن القانون سلوك إنساني لا يرضى عنه المجتمع، أما جنوح الأحداث فهو الخروج على قاعدة أو اتفاق على التجاوز وعدم الالتزام، وقد حدد علماء الاجتماع سلوك الجانح بمستوى خطورته، ومدى استمراريته وتكراره، ووجود الاتجاه العدواني نحو المجتمع والنظم السائدة فيه. ومن السلوكيات الجانحة الشائعة التي يرتكبها الأحداث السرقة والاعتداء والمشاجرة، ومخالفة المرور، وتدمير ممتلكات (الغير)، والهروب من البيت والمدرسة، والسهر خارج البيت والمعاكسات التليفونية، واللواط والسكر واستخدام المواد الكيميائية أو المخدرات وجميع الشرور مما سهل تناوله في ظل التقنيات الحديثة. وهناك نماذج شخصية أخرى تميز الجانحين عن غيرهم مثل العصائيين المصابون بالهستيريا والمرتبطين سلوكهم بضعف الشخصية، إضافة إلى الجانحين المراهقين الذين ينحرفون قبل مرحلة البلوغ. وهناك الجانح المعاق أو المتخلف من يأتون من أوساط اجتماعية فقيرة وهم يشكلون نسبة كبيرة، ولديهم نقص في النواحي

الثقافية والعقلية والتفاعلية، هم أقل قدرة على تحمل ضغوط البيئة المحيطة بهم، لكن توفر التدريب الاجتماعي يجعلهم في حالات قابلة للتحسن، كما أنهم يحتاجون كذلك إلى تدريب في التعامل مع الآخرين حيث تكون استجاباتهم سريعة للتغيرات الملائمة في البيئة، وقد تكون مشكلتهم الوحيدة هي أنهم قد ضلوا الطريق للتكيف الاجتماعي السليم.

تحدث وسائل الإعلام المختلفة عن زيادة انحراف الأحداث، وعلى سبيل المثال وفي دراسة تخص دولة قطر، أوضحت إحصائية رسمية نشرت في مارس 2000م أن عدد الأحداث الذين جنحوا في قطر خلال الأعوام من 1994م حتى العام 1999م قد بلغ (843) حالة متنوعة أكثرها كان في جنح ضد المال العام، والتي بلغت (368) جنحة تليها جنح ضد حياة الأشخاص التي بلغت (184) حالة و(132) ضد الأخلاق والآداب و(11) ضد المذنبات الكيميائية و (148) في قضايا أخرى لم توضحها الإحصائية. أما الحالة الوظيفية لمرتكبي هذه الجنح فتوزعت ما بين العديد من المهن، فقد بلغ عدد الطلبة الذين ارتكبوا جنحاً خلال الفترة نفسها (720) طالباً متكرراً، حيث تم احتساب مرة واحدة لعدة توقيفات من الجنح. وهؤلاء الطلبة موزعون على السنوات من 1994م إلى 1999م حيث تم تسجيل (132) جنحة لهم عام 1994م و(120) جنحة عام 1995م و(12) جنحة عام 1996م (123) جنحة عام 1997م و (89) جنحة عام 1998م و(124) جنحة عام 1999. وبلغ عدد الجنح التي ارتكبها عمال (4) حالات والجنود (6) حالات و(113) عاطلاً عن العمل. أما بالنسبة لجنسيات مرتكبي الجنح أوضحت الإحصائية أن من بينها (591) حالة لقطريين و(52) من جنسيات خليجية، و(87) لعرب من دول مختلفة و(112) من الأجانب. هكذا نجد أن أكبر نسبة للجنوح يمثلها العاطلون عن العمل.

- ثقافة وأعمال العنف تجتاح شباب العالم:

لم تهذب الحضارة الحديثة الفرد كما ينبغي، بل ساهمت البطالة في تدني مستويات

السلوك المهذب والأخلاقيات الراقية، والأدلة على ذلك كثيرة: هناك مشاهد مكثفة للعنف والقسوة تظهر عبر الفضائيات ووسائل الإعلام، كذلك يوجد الجنس المفضوح في المسلسلات والأفلام السينمائية، تلك التي يقبل عليها شباب اليوم إقبالاً شديداً وتعصدها الخمر والمخدرات. وقد يطبق الشباب هذه المشاهد السينمائية العنيفة بحذافيرها على أرض الواقع؛ وقد ظهرت بالفعل بشاعة العنف في عمليات القتل الجماعي في الكثير من المجازر عبر العالم.

يستمر مسلسل العنف من خلال صناعة برمجيات الحروب المركبة للأطفال والمراهقين، وهي برامج ألعاب ترفيهية لكنها ترسخ وتدعم ممارسة التدمير والقتل والإبادة بكل أنواعها، بل لقد تسببت هذه البرامج الترفيهية في زوال الحواجز بين الحقيقة والخيال وبين الوهم والواقع مما نتج عنه الكثير من الاضطرابات العصبية والنفسية وعدم القدرة على التركيز، مما أدى إلى الخلل في طرق تعبير الفرد عن رغباته وحركاته؛ بل قد يؤدي الفرد نفسه نتيجة اختلاط الأمور عليه!

هكذا قد تتكون عند الشباب هواية مشاهد العنف وقد لا يجد بأساً في ممارسته. وما يزال الغرب ماضياً في تصميم برامج تمجد العنف وتسهل الطريق إليه، ويقلده الشرق في ذلك مما يؤدي إلى تفشي ثقافة العنف في العالم أجمع. وعلى سبيل المثال لا الحصر قام الدكتور مُجَّد الرميحي في الثامن من يوليو من عام 1997م، بتقديم عينة مرعبة من الأرقام المظهرة للعنف في دولة الكويت، حتى أن الكتاب والمهتمين بمواضيع العنف قد تبينوا الخطر، فساهموا في وضع الحلول المختلفة. ويظهر العنف بأشكال مختلفة في حياتنا اليومية بدءاً من القيادة المتهورة للسيارات إلى السلوك اليومي الزاخر بالعنف في القول والعمل، وهو أمر تتعرض له معظم المجتمعات في العصر الحالي، ولا بد من العمل على تخفيف منابعه.

وحسب إحصائيات أكتوبر 1999م التي ظهرت في كتاب: «أوقفوا العنف» للباحث «كريستوف نايك» فقد حدث ارتفاع متزايد في أعمال العنف، والدليل على ذلك أن ما يقارب من نصف حالات الوفيات المسجلة ما بين الأعوام 1989م/ 1998م كانت نتيجة لأسباب مشاجرات وقعت بين الشباب. وقد أثبتت إحصائيات البوليس الدولي أن 21% من الأفراد قد أُلقي القبض عليهم في عام 1999م بسبب الجناح الجنائية مقارنة بما يقارب 13% في بداية التسعينيات. أما أعداد المصابين فقد ارتفع من 9% في عام 1990م إلى 15% في عام 1999م. وكثيراً ما يكون الضحايا من أبناء الأسر التي تنتمي للطبقة المتوسطة والتي لا تعاني من مشاكل بينما ينتمي الجناة لأسر متفككة أو أسر غنية مترفة.

كذلك يتأرجح الشباب بين التوجهات العنيفة والمعايير الأخلاقية المتعارف عليها مما قد يؤدي للعزلة أو الانفتاح غير المحدود. ولتفادي تلك الظاهرة والحد منها أصدرت السلطات الفرنسية في بداية عام 1998م قراراً يقضي بدراسة وتفهم أحوال الجناح التي يرتكبها الأحداث قبل استدعاء الشرطة وعرضها على القضاء. كذلك قامت فرنسا بإعداد الإصلاحات المدرسية وتخصيص اجتماعيين وباحثين لمناقشة مشاكل طلاب المدارس قبل استفحالها. ولا شك بأن الوضع بين الشباب عامة لا يساعد على تنمية القدرات المزاجية المتوازنة، ومما يزيد الطين بلة هو سهولة حصولهم على التقنيات دون تقنين أو مراقبة. العنف قد يبدأ باللسان ثم يتحول إلى اليد، وما يمكن أن تحمله هذه اليد من أدوات بعد ذلك، بدءاً من السوط وانتهاءً بسلاح عادي قاتل أو سلاح متطور جداً.

- ثانياً: غياب الحوار الهادئ والتسامح الديني والنظرة الإنسانية⁽¹⁾:

غياب الحوار الهادئ والتسامح الديني والنظرة الإنسانية أثار موجات من التعصب الديني والنظرة العنصرية في اللون والجنس تلتها موجات قوية من العنف في معظم أنحاء العالم.. والعنف هو سلاح العاجز عن الإقناع أو المتعصب للرأي الذي يريد أن يسير الناس على هواه حتى يسود منظوره في الحياة والتعامل. ولا يمكن وضع التبريرات لتسويق العنف بشكل عابر ومتسرع أو اختلاق الأسباب له كالأستفزاز وغيره، بل لا بد أن يكون القانون هو السيد الذي نلجأ إليه بطريقة منظمة كمجتمع متحضر. والديمقراطية السياسية لا بد أن ترتبط بالتعددية في الاجتهاد الاجتماعي خاصة في الظروف العالمية المعقدة والمتسارعة في كل يوم.

الاستمرارية المتصاعدة في أشكال العنف هي محصلة أمرين: الأول هو الإفراط في الإحساس بالانتماء إلى فريق أو تيار أو دعوة ثم الاحتماء بها من القانون؛ والثاني هو فرط إحساس ذلك الانتماء بامتلاك الحقيقة كاملة غير منقوصة، وهذا الأسلوب ينسف مبدأ الأمانة العلمية التي تعتبر ركناً من أركان التحري والاستقصاء. وبناء على ذلك تظهر المجموعات التي تعتقد أن لديها كل الإجابات وجميع الحلول! وهو إفراط في التعصب مذموم بل منهي عنه شرعاً وخلقاً وقانوناً.

إن محاربة التعصب تبدأ بالاعتراف بأن نقائص البشر كثيرة وبأنه لا يوجد شخص كامل وخال من العيوب، وما يمثل حقيقة اجتماعية في مجتمع قد لا يعد كذلك في مجتمع آخر، هكذا فإن لكل مجتمع تجربته فيما يُجتهد فيه ويحقق المصالح الخاصة به.

(1) للمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية: يوسف عوض، نقد العقل المتخلف: بحث في أزمة الوجود الحضاري عند فقراء العصر التقني (بيروت: دار القلم، 1985م)؛ علي الورد، في الطبيعة البشرية (عمان: منشورات الأهلية للنشر والتوزيع، 1996م)؛ إدوارد دي بونو، الصراعات، ترجمة فاطمة السنوسي (أبوظبي: المجمع الثقافي، 1997م)؛ محمد منير سعد الدين، الإعلام: قراءة في الإعلام المعاصر والإعلام الإسلامي (بيروت: دار بيروت المحروسة للطباعة والنشر، 1991م).

وقد تكون الأزمة في حقيقتها تنقيفية، ولا يجوز لأي طرف أن يستغلها لإدانة طرف آخر لسبب سياسي أو ديني. وذلك على عكس من يظن أن التعصب الديني هو الحل الأمثل لمشاكل البشرية مما ينشر الكراهية بين الأديان بل وبين أصحاب المذاهب المختلفة في الدين الواحد. ولا بد للفرد أن يتعلم ويستفيد من الدروس والعبر والعظات؛ لأن الغفلة قد تسرق الإنسان فتجعله لا يرى أبعد من مواقع قدميه، وفي هذا ظلم شديد يقع على الإنسان ويورثه الأنانية وضيق الأفق ونفاد الصبر. الإنسان مطالب بأن يتكئ على ثوابت أخلاقية، وأن يؤمن بقيم إنسانية، وأن يتحلى بحسن الأخلاق وسعة الأفق، كما أن الإشارة بصدق إلى مواضع التشوه في مجتمعنا هي الخطوة الأولى حتى لا تتحول الاستقامة الاجتماعية إلى أشكال مظهرية فقط. والجدير بالذكر أنه قد تم تجاهل العنف كدراسة لسنوات طويلة ولم يجر تصويبه في وقته بل ترك للتفاعلات الداخلية والإرخاء والجذب حتى تفشى وتحول الغضب الطارئ إلى تعصب ثم إلى عنف ثم إلى مظاهر الإرهاب المختلفة.

- ظاهرة الإرهاب:

الإرهاب ظاهرة اجتماعية ذات عمق تاريخي، وهي ليست مقصورة على العصر الحديث فقط. ويمكن تعريف الإرهاب بأنه: تخريب المنشآت العامة واستهداف الأبرياء لإنهاء حياتهم دون وجه حق. وليس كل ما يطلق عليه إرهاب في وسائل الإعلام العالمية إرهاباً في الواقع، إذ أصبح استخدام تهمة الإرهاب، لأغراض سياسية واقتصادية ودينية، من أهم ملامح القرن الواحد والعشرين، وهذه الممارسة هي وسيلة جديدة من وسائل الإرهاب. إن الإرهاب الفعلي يمثل المحصلة النهائية للإرهاب الفكري، الذي يمثل الجذور التي تحمل ساق وثمرات الإرهاب الفعلي.

وقد استطاع الإرهاب الفكري (الغلو) أن يجد ميداناً رحباً وترحيباً بين بعض شرائح المجتمع نتيجة ارتدائه ثوب (الصحة) والعودة إلى الله. وإذا كان مفهوم الصحة ينطبق على بعض أجزاء العالم الإسلامي إلا أنه لا يمكن إنزاله على واقع الجزيرة العربية على وجه التحديد حيث إنه لم يثبت على مدار التاريخ أن الارتداد عن الإسلام أو عدم ممارسة أحد أركانه أو

استحلال الكبائر قد أصبح يوماً من الأيام ظاهرة في جزيرة العرب، وهذه دلالة على أن الحديث عن وجود صحوة في هذه المنطقة يفتقر إلى أبسط الأدلة والبراهين. ومن أهم العوامل التي أنبتت الإرهاب الفكري الأخذ بالرأي الواحد وذم آراء المخالفين بغض النظر عن حججهم دون تمييز ما بين الخلاف والاختلاف. وكمثال جيد على التعددية الفكرية نذكر بأن الإمام أبا حنيفة كان مؤسس مدرسة أهل الرأي في الفقه الإسلامي وهو إمام جليل شهد له كبار الأئمة بالعلم والتقوى والورع.

ومما تجدر الإشارة إليه أن محاولة عزل علوم الشريعة عن العلوم الأخرى كانت هدفاً استعماريّاً لتخريج أجيال متناحرة مصنفة إلى علمانيين وأصوليين، إذن لا بد من إعادة هيكلة الجامعات الإسلامية وذلك بإنشاء كليات تقدم العلوم الطبيعية والتطبيقية والاجتماعية جنباً إلى جنب مع الشريعة.

ولن ننسى أن كلنا آدم وآدم من تراب، وعلينا نشر فضيلة التواضع والتسامح بين البشر. وما نرمي إليه يلخصه المقال المنشور في جريدة «الشرق الأوسط» بتاريخ 2004/1/23م، للكاتب خالص جليبي، بعنوان فضيلة «التسامح الديني»⁽¹⁾:

(1) الشرق الأوسط، 2004/1/23م، يقول الكاتب: «في عام 1649 طار رأس الملك تشارلز الأول وولدت الجمهورية في بريطانيا على يد كرومويل. وكان أهم شيء فعله شق الطريق إلى الملكية الدستورية و«التسامح الديني» فسمح لليهود بالعودة إلى بريطانيا بعد أن طردوا منها ثلاثة قرون. وإذا كانت عظام كرومويل قد أصبحت في المزبلة فهو ليس مهماً والمهم هو ولادة الملكية الدستورية ونهاية الحكم المطلق. والفضل في عمل كرومويل يعود إلى فيلسوف مشهور هو «جون لوك» الذي هرب إلى هولندا في جو «التعصب الديني». ويقول عنه المؤرخ «ويل ديورانت» إنه عندما رجع في ولاية وليم الثالث عام 1689م إلى بريطانيا كان يناهز الستين، وفي سنة واحدة «عام العجائب» دفع للطباعة ثلاثة كتب جعلت منه أحد نجوم الفكر في التاريخ. كان الأول بعنوان: «بحشان عن الحكومة» رفض فيه الحق الإلهي للملوك وقال بنظرية فصل السلطات وأرسى فيها قواعد الديمقراطية السياسية، والآخران هما: «رسالة عن التسامح الديني» و«مقال في الفهم الإنساني». وكما حلل صديقه «نيوتن» الضوء فقد قام لوك بتحليل النفس الإنسانية والعمل السياسي. ويقول لوك عن «التسامح الديني»: إنه يجب أن ينتقل من التسامح بين أبناء الدين الواحد إلى التسامح بين أبناء الديانات المختلفة: «يجب ألا نستبعد إنساناً أياً كان عمله أو وظيفته لأنه وثني أو مسلم أو يهودي». وأثرت أفكار المناضل «جان لوك» في تفجير الثورة الفرنسية و«إعلان حقوق الإنسان». وإلى أميركا الجنوبية فقد تأثر سيمون بوليفار بفكر لوك وحرر خمس دول من الاستعمار الإسباني هي كولومبيا وفنزويلا والإكوادور وبوليفيا وبيرو بين عامي 1819 و1825. هكذا ترك لوك آثاره على جو التنوير والتسامح الديني في أوربا فأخرج «كانت» كتابه عن «نحو السلام الدائم» وظهر «إيرازموس» بالنزعة الإنسانية من روتردام. إن أكبر نكبة تحيق بالفكر هي التشدد لأنه يعمل ضد قوانين الطبيعة التي تقوم على التوازن. فزيادة البوتاسيوم أو نقصه في الدم إلى الحد الحرج تقود إلى توقف القلب بالاسترخاء أو الانقباض. وزيادة النحاس في الجسم يقود إلى تشمع الكبد بمرض ويلسون. والكهرباء جيدة عندما ترفع الناس في المصاعد ولكنها قاتلة إذا نزلت

- ثالثاً: تتفاقم معدلات الطلاق وزيادة العنف الأسري⁽¹⁾:

في العصر الحالي تتفاقم معدلات الطلاق ويزداد العنف بين أفراد الأسرة الواحدة، مما يؤدي للتفكك الأسري والتشرد الفكري والنفسي، بل ربما للتشرد الجسدي أيضاً. وفي

من السماء على شكل صاعقة. وأفضل حالة للطاقة هي أن لا تجمد ولا تتفجر، والماء جيد إذا حبس خلف السد، وهو مدمر إذا جاء على شكل الطوفان. وعضلات الجسم ليست في حالة توتر بل هي بين الانقباض والانبساط. ولا يولد الطفل من رحم أمه بدون التقلص والارتخاء. والخوف من العقاب ضروري للحفاظ على الحياة، ولكن زيادته تدفع صاحبها إلى الرهاب والجنون. والفلسفة الصينية تقوم على مبدأ تبادل السلبية والإيجابية ويسمونها بين واليانغ. وأفضل شيء يتحقق في المجتمع هو العدل. وخير حالة تعيشها النفس هي الصحة النفسية بتوازن الغرائز والعواطف، ومن هذه المعاني وصل الفلاسفة إلى شيء سموه الوسط الذهبي. وكل فضيلة - بتعبير أرسطو - هي وسط بين رذيلتين. فالشجاعة هي وسط بين الخوف والتهور. والكرم هو ما بين البخل والإسراف. ومبدأ الثنائية خطأ، فليست الأمور أسود أو أبيض ولا يخرج «التدين» عن هذا القانون. ولذا فإن التشدد هو ضد قوانين الحياة وهو يدمر نفسه ومن حوله. إن التدين يشبه الملح والهورمونات في البدن فمن دون الملح في الطعام يفقد كل نكهة. ومن دون التدين في الحياة = تتقلب الحياة إلى آلة لا معنى لها. ويقدر حاجة البدن الضرورية للملح بقدر تسممه إذا زادت الجرعة. ولكن قبضة من ملح في الطعام تجعل النفس تعافى. فهذه هي جدلية التدين والتعصب. إذا أخذ التدين بجرعته المناسبة وامتزج بالوعي أعطى للحياة معنى ونشر الرحمة والحب. وإذا زادت الجرعة انقلب الوعي إلى تعصب والحياة إلى جحيم لا يطاق وظهر للسطح «تدين» ضد الحياة والدين. وانقلب المجتمع إلى مصحة أمراض عقلية من دون أسوار وقضبان وأطباء، فهذه القيمة الحدية للأشياء ضمن وسطها (الذهبي). وإنه ﴿ ما من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾. وظاهرة التكفير تعني أن طرفاً يحكم على طرف آخر منافس أنه حرم من رحمة الله. وهي تأتي من خلال «وهم» مفاده أن صاحبه يملك الحقيقة النهائية المطلقة، وتعود إلى كارثتين: الانغلاق على النفس وبناء طريق أحادي تماماً كما في طرق سريعة من دون عودة فيها.

التدين قد يكون جنوناً وقد يكون عقلاً بقدر تملّحه بالوعي أو تسميمه بالتعصب. وقد تخرج نسخ من إسلام ضد الإسلام وتدين ضد الحياة. وأية طاقة سواء (الماء) أو (الكهرباء) أو (الجنس) أو (الدين) تخضع إلى ثلاث معادلات: بين (الحبس) و(التنظيم) و(الانفلات). فالماء يأسن ويصبح مستنقعات للبعوض مع الركود. وهو يولد الكهرباء بالسدود، ويسقي الأرض بانتظام فيجلبها حدائق ذات بهجة للناظرين. وسد مأرب كان جنتين عن اليمين والشمال، وعندما انفلتت فاجأهم السيل العرم، فمزقوا كل ممزق وأصبوا أحاديث. و(الكهرباء) قد تكون صاعقة في السماء، كما يمكن حبسها بسلك فلا يستغني عنها إنسان ومؤسسة وبيت. و(الجنس) المسجون يولد الهلوسات، والمنفلة يقود إلى الإباحية، والمنظم إلى الأسرة السعيدة. والطاقة الروحية غير المرشدة في الدين قد تنتج إرهابيين مثل الصاعقة التي تحرق وتدمر، كما قد تنتج حضارة تشع بالعلم والتسامح والإنسانية. ورشة ملح إلى الطعام تجعله مستساغاً، وقبضة منه تجعل النفس تعافى، وكذلك التدين والتشدد والتكفير. فكلها طاقات خاضعة لقوانين الله التي قد حلت في عبادته. أجهزة الأمن قد توقف الإرهاب حتى حين، ولكنها تفعل مثل حبة الأسبرين مع ارتفاع الحرارة، فيظن المريض أنه تعافى لكن الجراثيم تتكاثر بدون توقف. وما لم يقض على فكر الإرهاب، فإنه سينفجر كل مرة على نحو أشد تدميراً وترويعاً. وما تفعله أميركا ضد الإرهاب هو تكرار لقصة الإسكندر مع القرصان الذي يغير على الناس بسيفه، أما الإسكندر فينهج البحار بأسطول!«.

(1) للمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية: سعاد عبد الله الناصر، قضية المرأة.. رؤية تأصيلية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة - قطر، كتاب الأمة (97) 2003م؛ علي أمين المزروعى، القيم الإسلامية والقيم الغربية، سلسلة دراسات عالمية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية (21)، 1999م؛ محمد عماد الدين إسماعيل، الأطفال مرآة المجتمع، عالم المعرفة (99)، الكويت، 1986م؛ عبد اللطيف محمد خليفة، ارتقاء القيم (دراسة نفسية)، عالم المعرفة (160) 1992م.

ظل ذلك التشرذم قد يتم الانسحاب من المجتمع والحكم عليه بقسوة ثم التحول للعمل السري العنيف:

يتناول مصطلح العنف الأسري جميع مظاهر القلق النفسي الناتجة من اضطراب العلاقة بين أفراد الأسرة، بدءاً من النظرات القاسية والصوت العالي ثم الصراخ وتحطيم الأثاث إلى الضرب المبرح وانتهاءً بالقتل غير العمد أو العمد. وقد أثبتت دراسة طبية صدرت في نوفمبر 2002م بأن مبيعات الأدوية المهدئة للأعصاب قد زادت في العالم أجمع بنسبة أكثر من الضعف منذ عام 1988م، كما أن غالبية المستهلكين من الشباب هم الإناث. وتدلل هذه الدراسة على قلق نفسي عالمي، حيث تشير الأرقام إلى أن المرضى النفسيين يمثلون الآن نسبة 7.5 في المائة من كافة المرضى في أنحاء العالم، وأن 70 في المائة من الجنس اللطيف تتراوح أعمار ثلثهم ما بين 15 و44 سنة. ويؤكد الطب النفسي أن معظم المرضى قد أصبحوا يطلبون العلاج علناً من دون خوف أو كبت لمشاعرهم أو ما يساورهم من قلق وكآبة.

ونشرت دراسة بريطانية صدرت في مايو من عام 2000م أن 40% من نساء بريطانيا قد فكرن في الانتحار، وأنهن ينمن بالمهدئات، بينما الأحوال الاقتصادية ومستوى المعيشة مرتفع في معظم الأحوال! أما الأسباب فقد تكون علاقة فاشلة في العمل أو الحب أو الزواج أو مضايقات في العمل أو في الأسرة. وتؤكد هذه الدراسة أن عمل المرأة خارج منزلها قد لا يكون في صالحها.

وقد صدرت الكثير من التقارير التي تناقش العنف الأسري مع وضع الأسباب والحلول تحت المجهر، كما تعددت وتنوعت الكتب والدراسات المحللة لأسباب العنف الأسري؛ لكن يمكن تلخيص الأسباب الكامنة وراء ذلك في النقاط التالية:

- أزمة الطاقة المعروفة عالمياً، مما أدى إلى تشوش الاقتصاد العالمي وإلى التخطي

الاقتصادي للحدود القومية مما سبب قلاقل الاقتصاديات الوطنية وتفاقم مشاكل الديون والفقر والبطالة. وقد انعكس ذلك كله على اضطراب الموازنة الاقتصادية للأسرة، مما أدى إلى ظهور العنف بسبب المادة.

- أزمة الأمن المعروفة عالمياً، بالإضافة إلى انتشار الأسلحة وتفشي الإرهاب وتسهيل أفكاره ووسائله من خلال الإنترنت؛ كل ذلك أدى إلى قصور التوقعات في مكافحة الجرائم الفردية والأسرية، مما أدى إلى تنامي ظاهرة العنف بين الأفراد.

- ظهور الأمراض الإعلامية، مثل إلغاء الخصوصية، وصياغة الأحداث الكاذبة بصورة مقنعة، وغير ذلك من الأساليب الملتوية التي جعلت الشك هو السائد بين الأفراد. أما تداخل الثقافات واختلاط القيم الأخلاقية فقد سهل تطبيع الفساد الأخلاقي، وهكذا ساءت السلوكيات العامة واختفت بعض القيم والمبادئ العليا حتى بين أفراد الأسرة الواحدة.

- انشغال أو إدمان الوالدين على أنواع عديدة من التقنيات الحديثة، مثل الهاتف والتلفاز وغيرها. فعلى سبيل المثال فإن عدم اهتمام الأب بشؤون أسرته لإدمانه الإنترنت أو لمتابعة التقنيات الأخرى قد يعني الكثير من المشاكل خاصة في المجتمعات الصغيرة. وتتضخم المشكلة عند انشغال الأم أيضاً، حيث يقوم الأطفال بمحاولات لجذب الانتباه منها أساليب عنيفة. هكذا يتزايد الأولاد المنحرفين الذين يشبون من غير رعاية مما يؤدي إلى تزايد عدد الجنوح، ومن الطبيعي أن يتحول هؤلاء إلى عناصر موبوءة وهدامة في المجتمع.

أما انشغال الأب والأم في العمل خارج المنزل ربما لفترات طويلة اعتماداً على بدائل من التقنيات الحديثة أو على الخدم، فقد أثر على التماسك الأسري وعلى أخلاقيات النشء ناهيك عن تفاقم مشاكل الطفولة. وقد أثبتت الأبحاث أن من أهم أسباب انحراف

الأحداث هو دور الأسرة نفسها في إيجاد بيئة للانحراف، مثل عدم تقبل الطفل في أسرته أو رفض وجوده لأسباب مادية أو معنوية. كما يؤدي التمييز في الأسرة الواحدة إلى تنمية مشاعر الغيرة والحقد بين الأطفال مما يغذي المشاعر العدوانية المؤدية إلى العنف. كذلك تؤدي الحماية الزائدة للطفل أو تنمية الشعور بالذنب إلى قيامه بتجريب الانحراف. وقد يحدث الانحراف الوسواسي نتيجة الخبرات المؤلمة التي يمر بها الطفل خلال السنوات الخمس الأولى من حياته. وقد يكون الجنوح بسبب الحرمان في سنوات التنشئة الأولى أو للأطفال الذين عانوا من الإهمال التام أو لأطفال مجهولي الأبوين غالباً.

ويبدو أن التقنيات الحديثة لم تساعد المرأة على تحقيق الأسرة الكاملة، بل إن بعض النساء العاملات يقمن بالعمل وتربية الأطفال دون مساعدة الآباء المالية أو المعنوية بالرغم من وجودهم الفعلي. والرجل قد يوجه اللوم للمرأة حين طالبت بالمساواة وبالعامل خارج المنزل مع أنه وجدها فرصة سانحة للتخلي عن مسؤولياته تجاهها وتجاه أبنائه منها. وبدلاً من أن تضع النساء المتعلمات مصلحة النشء والأسرة وضعت المطالبة بالحرية أولاً! تلك التي انقلبت وبالأعلى عليهن وعلى أطفالهن؛ وبدلاً من أن يتم إصلاح الأحوال ومقاومة المظالم قامت الحرب بين الجنسين. وعندما تعمل المرأة ويعاني الرجل من البطالة فلا شك بأن ميزان الأسرة يصبح مختلاً، فالرجل لا يملك مقومات العناية بالأطفال رغم وجود التقنيات، هكذا تنقلب الأدوار وتعاني النساء والأطفال معاناة جديدة.

والجدير بالذكر أن المرأة تمثل حالياً أكثر من نصف القوى العاملة في معظم الدول، وذلك بعد أن دعمت حقوقها في أكثر من 130 دولة في العالم، وسوف تثبت الأيام بأن تلك الحقوق سوف تنقلب نكالا ووبالاً على تلك الدول. وعلى سبيل المثال فقد أظهرت آخر إحصائية في مملكة البحرين (تصنف من دول العالم الثالث) بأن 70% من القوى العاملة في الوزارات ومؤسسات الدولة هي من النساء! بينما يتعرض الرجال للبطالة التي

رفعت بالمقابل من معدل الجرائم واللجوء للخمر والمخدرات. وفي المجتمع الأمريكي أطلقت الكاتبة «بيتي فريدان» على العلاقة بين رجل وامرأة اليوم مصطلح «سياسة الكراهية»! وبعد أن كانت من النشاطات في طلب التحرر والمساواة إلا أنها في كتابها الجديد «BEYOND GENDER» الذي نشر عام 1998م، قد ركزت على تحول الحركة النسوية إلى حركة مغايرة للمصلحة العامة، وأكدت بأن النسوية قد دمرت الجماعة الوطنية؛ وعليه فهي تنادي برؤية جديدة في دعم الأسرة واسترداد المجتمع المتماusk المتراحم الذي تمثله ربة المنزل المتفرغة لتربية أطفالها والعناية بأقاربها دون الاعتماد الكلي على التقنيات أو على الخدم والمربيات.

في المقابل، قد تضل نساء اليوم الطريق القويم ويسرن بألية دفع الأنانية ويرفضن المراجعة والتقويم وينظرن لربات المنازل وللتراحم وصلة ذوي القرى نظرة رجعية. لقد رصدت الجمعية الأميركية للمرأة العاملة أدوار المرأة في المائة سنة الأخيرة، حقوقياً وإحصائياً وصحياً، ونشرت ذلك في تقرير مؤتمر الدوحة في نوفمبر 2004م، ومن أهم ما لفت الأنظار في هذا التقرير تزايد حالات الطلاق في الدول النامية بشكل مخيف مما أدى لظهور مشاكل العنف المتنوعة. ولا شك في أن البيت المنقسم بالطلاق قد يلقي ظلالاً سوداء تنعكس على أبنائه، فتجعل منهم بائسين أو معقدين ويعيشون الشعور بالنقص، فلا يكون التعويض عندهم غير النعمة والرغبة في الجريمة. وتبعاً لذلك فإن مجتمعاً صغيراً لن يكون قادراً على تحمل هذه النتائج، وسوف يتعرض كافة كيانه للتمزق والدمار. إن هؤلاء الأفراد هم في الواقع ضحايا الآباء والأمهات غير المسؤولين وضحايا المجتمع، الذي لم يضع قوانين رادعة تضمن حياة عائلية كريمة ومستقرة لتحمي أجيال الوطن من الضياع.

وفي دول مجلس التعاون، تظهر حالات الطلاق في تزايد مستمر، وعلى سبيل المثال تم

رصد أعداد القضايا الأسرية حتى باتت تشكل 60% من القضايا الواردة إلى المحاكم السعودية، وقد وصلت نسبة الطلاق في جدة إلى 45% خلال عام 2005م ومعظمها في مراحل الزواج الأولى أي سنة أولى زواج! ويعود ذلك إلى الجهل في فن الحياة الزوجية وإلى افتقاد ثقافة ما قبل الدخول في الحياة الزوجية، ويمكن اكتساب ذلك من خلال الدورات والمحاضرات التي تقام في مراكز متخصصة. إن تلك الدورات يجب أن تهتم بما الأسرة، التي ذهب اهتمامها اليوم إلى أشياء ثانوية مثل أين تقام مراسم الزفاف، وتهيئة المنزل والسيارة، والتغافل عن تهيئة أبنائهم للحياة الزوجية، وما يجب على الزوجين، وكيفية تعامل الزوجة مع الزوج والعكس.

وفي مواجهة هذا الأمر كان لا بد من إيجاد آليات، منها عدم رفع قضية قبل أن تمر على مكتب إصلاح ذات البين ليقوم بالتنسيق مع المحاكم والجهات المختصة لاستقبال الحالات، وخاصة حالات الطلاق، وخضوع الطرفين إلى مقابلات شخصية مع مختصين في الجانب النفسي والاجتماعي والشرعي للوصول إلى حلول مرضية، ثم بعد ذلك يتم توثيق ما تم الاتفاق عليه من شروط وإعادة تم إلى الجهة التي قامت بإحالتهم.

إن غالبية مشاكل الطلاق لها أسباب متشابهة، منها الخطأ في الاختيار، وكذلك غياب الوعي الأسري لدى الزوجين، والجهل بثقافة الحياة الزوجية، أو الجهل عند الرجل في معرفة معنى القوامة وتفسيره لها على أنها مجرد تسلط ودكتاتورية على الزوجة، مما يؤدي إلى نفورها منه. وقد لا ينظر الرجل إلى الحياة الزوجية على أنها شراكة متبادلة بل يظن أنها مجرد استمتاع فيه نوع من التسلط من قبل الرجل مما قد يهين كرامة المرأة.

العنف الجنسي ضد الإناث:

تتعرض الإناث بشكل خاص للعنف الجنسي نظراً لضعفهن الجسدي مقارنة بالذكور، وقد ذكرت بعض التقارير بأن امرأة واحدة من أصل أربعة في العالم تتعرض للعنف الجنسي؛ ومن الضروري التحقق من دقة هذه الأرقام واستكمالها؛ لأنها تشير إلى دلالات خطيرة جداً. إن آخر إحصائية لممارسات العنف ضد الإناث ظهرت في تقرير منظمة الصحة العالمية الصادر في أكتوبر من عام 2002م، وقد أشار إلى جميع أشكال العنف ومن أهمها العنف الأسري بين الأزواج. واستناداً إلى دراسات أجريت في أستراليا وكندا وإسرائيل وجنوب أفريقيا والولايات المتحدة، يعتبر التقرير أن ما بين 40 و70% من النساء هن ضحايا العنف، وقد قتلن بأيدي أزواجهن أو شركائهن. كما تؤكد الدراسات بأن 37% من النساء قد تعرضن للإكراه الجنسي خلال أول علاقة جنسية لهم. كما أكدت الدراسة أن ما بين 10 - 20% من النساء اللواتي شملهن الاستطلاع في 48 بلداً ما بين عامي 1999م - 2001م قد تعرضن للعنف الجنسي على أيدي شركائهن في مرحلة من حياتهن.

والعنف ضد النساء، يظهر في الشمال والجنوب والشرق والغرب في الدول الغنية والفقيرة، ومهما كانت الديانة والتقاليد الاجتماعية.

ولعل من أهم أسباب العنف ضغوط الحياة الحديثة التي يعاني منها جميع أفراد الأسرة دون استثناء، مما يجعل للقوي حق التنفيس ضد الضعيف في الأسرة. كما أن افتقاد الحوار البناء وغياب تعلم الأساليب المنطقية لحل المشاكل قد يفاقم من أساليب العنف الأسري. وتشير الدراسات إلى أهمية تعلم أساليب ومهارات حل المشكلات الأسرية للمقبلين على الحياة الزوجية، وذلك للتخفيف من مظاهر العنف الأسري. كما تجدر الإشارة إلى وجود مقررات دراسية جامعية تتعلق بحل المشاكل الأسرية، ولا بد من التشجيع على دراستها لكلا الجنسين.

- رابعاً: التقنيات الحديثة وسهولة الوصول إليها:

قد يتم اكتساب وممارسة العنف من خلال وبواسطة التقنيات الحديثة، التي أصبح الوصول إليها سهلاً وميسراً، وهي بلا أدنى شك قد سهلت سبل ووسائل العنف الاجتماعي المتنوعة إما بالتقليد أو بالعمد والتخطيط.. لقد توغلت العولمة الأخلاقية عن طريق الإعلام والفضائيات والإنترنت في خصوصية الفرد؛ ومن دلائلها انتشار الجنس المثلي، واستخدام المخدرات، وظهور الأمراض المترتبة عليها كالإيدز وخلافه. كذلك تفشى التدخين وتناول الخمر والمسكرات، حيث ساهمت التقنيات الحديثة في خفض سعرها وسرعة تداولها.

وفي سياق التحذير من اكتساب العنف، لابد أن نشير إلى تقرير منظمة الصحة العالمية الصادر في أكتوبر من عام 2002م والذي أكد أن 1.6 مليون شخص يقضون سنوياً بطريقة عنيفة في العالم، ونصف هؤلاء يقضون عبر الانتحار الميسر بالتقنيات! كما أشار التقرير إلى أن أكثر من 60% من عمليات الانتحار يقدم عليها الرجال، وهي رابع أسباب الوفيات لدى أشخاص تراوح أعمارهم ما بين 15 و44 سنة. لقد شملت الدراسة سبعين بلداً، وأوضح التقرير أن الحروب تحصد فقط خمس هؤلاء الضحايا! بينما تمثل جرائم القتل نحو ثلث الوفيات الناجمة ويشمل ذلك التجاوزات الجنسية ضد الأطفال والعنف ضد المسنين وغير ذلك من المظاهر المتنوعة للعنف الفردي أو الجماعي. وقد أفاد التقرير بأن 1424 شخصاً في العالم يموتون يومياً في جرائم قتل، أي بمعدل شخص كل دقيقة!

ونذكر في ما يأتي بعضاً من التقنيات الحديثة وآثارها، التي تساهم في تضخم معدلات

العنف:

1- التقنيات الإعلامية:

لقد ساهمت التقنيات الإعلامية في عمليات غسل الأدمغة البشرية، على المستويين الفردي والجماعي، بل توجد أبحاث جادة لتغيير السلوك الفردي بشتى الوسائل! ولا شك في أن التقنية المعاصرة قد طورت الفرد المستعبَد (سواء كان رجلاً أم امرأة، طفلاً أم شيخاً) الخاضع لمتطلبات السوق ولدعايات التقنية السائدة حتى وإن كانت عنيفة. وتقوم إعلانات البث الإذاعي والتلفازي بدور المتحكم في سلوك الفرد إلكترونياً، وذلك إما بالتحكم عن بعد أو عن طريق البرمجة وغسل الأدمغة باتجاه العنف! وكل ذلك يدخل في مجال انتهاك التكامل العقلي للفرد بل انتهاك حرته الشخصية وتدمير كل ما نصت عليه المواثيق والأعراف والأديان. أما قولة التفكير باتجاه العنف فتتم بكل سهولة ويسر عن طريق نشر الأفكار المسمومة في أجهزة الإعلام المختلفة والتي غالباً ما تحقق أهدافها في إقناع الشعوب بممارسة العنف لأهون الأسباب، بل قد أسست وسائل الإعلام والدعاية الجماهيرية دعائم العولمة الشمولية، كما تغلغت في الحياة الشخصية بحيث لم يعد هناك فرد مستقل فكرياً على الإطلاق، وظهرت سيطرتها على جميع أفراد الأسرة.

2- الإنترنت:

هناك الكثير من المخاطر التي تتورط فيها المجتمعات المعتمدة على المعلوماتية من خلال الإنترنت، الأمر الذي يتطلب بذل الجهد ليكون مجتمع الإنترنت مجتمعاً بضوابط صارمة، فقد وُجد ليخدم البشرية والتواصل فيما بين الناس، ولم يوجد لتدمير المجتمع، لكن من الصعوبة بمكان حصر المخاطر الأخلاقية وأمراض العنف التي تتورط فيها المجتمعات المستعملة للمعلوماتية من خلال مقاهي الإنترنت وغيرها. وقد يكون السبب في ذلك هو التقدم التقني المطرد وتطور الاختراعات بسرعة مذهلة حتى أن معظمها يُحفظ بصورة

سرية من قبل مكشفيها، وهكذا لا يمكن إعطاء صيغة واضحة لحماية الأفراد من مخاطرها. ومن المعروف أن القيود تنعدم في شبكة الإنترنت، بل من الصعب جداً وضع مراقبة نظراً إلى المساحات العالمية التي يعمل ضمنها هذا النظام، لذا يكاد يجمع الاختصاصيون على أن الإنترنت اختراع عظيم وخطير في آن واحد، وتحديدًا في العالم الثالث حيث يصبح موضوع التواصل وتقنياته حساس بشكل غير منضبط على رغم تأمينه سرعة الاتصال وإزالته للحدود الجغرافية بين البلدان.

وتتعدد مظاهر العنف التي يمكن تعلمها من خلال الشبكة بدءاً من التقليد الأعمى للمظاهر السلبية وانتهاءً بتعلم صنع القنابل والمتفجرات. وفي غياب الرقابة تكثر المخاطر والأضرار الناجمة عن استعمال الشبكة خاصة أن الشركات لا تخضع لأية سلطة أو رقابة ومرجعية، سواء من وزارة الإعلام أو من الاتصالات لجهة تأمين خطوط الهاتف للاتصال بمشركين أو بشبكة الألياف الزجاجية أو عبر الصحون اللاقطة للاتصال بشبكة الإنترنت الخارجية.

وكما يعاقب القانون على جمع الأموال بطريقة احتيالية والقيام بالنشاطات الإجرامية كذلك لا بد أن تنظم أمور استعمال الإنترنت بوضع أجهزة رقابة على المواد، التي تنشر حتى لا تكون مباحة إلى هذا الحد. لكن من المسؤول عن شبكة الإنترنت وأين يحصل التعدي؟ هل المذنب هو من زوّد الشبكة بمعلومات عن وسائل العنف؟ أم هي الشركة التي تؤمن الاتصال؟ أم هو الشخص الذي يتلقى المعلومات ويحفظها في جهاز الحاسوب لديه؟

الاجتهاد القانوني يميل إلى القول: بأن المأمّن (provider) هو المسؤول، ويطبق عليه القانون؛ لأن له فروعاً في البلد المعني حتى ولو كانت الرسالة غير الشرعية آتية من الخارج، فإن المأمّن هو الذي قام ببثها. ولمنع ظهور الفضائح لا بد من

وضع تشريعات تحفظ حقوق الإنترنت ولا تتعارض مع القيم التي نؤمن بها، وأن أي موقع لا يخدم البشرية يجب أن يُغلق، كما أن على الدولة والهيئات الرسمية التي تعنى بهذه الأمور أن تضع حدوداً لحرية استعماله ليكون فقط بهدف نفعي خاضع للقيم. وعلى وزارات الشؤون الاجتماعية والتربوية أخذ مخاطر الإنترنت على محمل الجد وما قد تؤول إليه مستقبلاً.

- المشاكل الأسرية التي برزت من خلال استخدام شبكة الإنترنت:

لعل من أكثر هذه المشاكل شيوعاً التعارف والعلاقات العاطفية التي تؤدي إلى مشاكل اجتماعية، ونضرب المثال التالي؛ لأنه من أخطر المشاكل وأكثرها انتشاراً:

في العاشر من ديسمبر 2001م تمكنت إدارة مكافحة جرائم الإنترنت بالإدارة العامة للمعلومات والتوثيق بوزارة الداخلية المصرية، من ضبط مواطن قام بانتحال اسم مواطنة بعد الحصول على كل بياناتها الشخصية ونشرها على برامج المحادثة على شبكة الإنترنت، معلناً عن رغبتها في إقامة علاقات جنسية مع أطراف المحادثات! وأكدت تحريات الإدارة بأن وراء تلك الواقعة صاحب معمل لطبع الأفلام الفوتوغرافية وتحميضها كان قد استغل معرفته ببيانات جارتة في إنشاء موقع وضع عليه صورتها على الحاسوب الخاص به، معلناً عن رغبتها في إقامة علاقات جنسية لكل من يرغب! وذلك انتقاماً منها بعد رفضها مبادلتة الجنس. هذه الواقعة ليست الأولى في نوعها بل ماثلة للتكرار، حيث تم ضبط أكثر من عشرة قضايا مشابهة استخدمت فيها شبكة الإنترنت. ومن أشهر القضايا أيضاً ضبط شبكة للتحرير على ممارسة الشذوذ الجنسي بين الرجال عبر مواقع خاصة على الإنترنت، وقد تم القبض فيها على طبيب ومهندس، وحكمت المحكمة عليهما بالحبس ثلاثة أشهر فقط!

- الإدمان على الإنترنت مرض يسبب العصبية ثم العنف ويدخل القاموس الطبي:

لقد نجح قطاع الحواسيب والشبكات والمعلوماتية في أن يتحول في العقدين الماضيين إلى قطاع اقتصادي مهم له شركاته ومريدوه ومشجعوه؛ وتكمن المشكلة التي يجذر منها المختصون منذ فترة هي إمكانية تحول هذا التشجيع إلى هوس وإلى حالة مرضية دائمة؛ وهو ما ناقشه الخبراء الصحيون على هامش المعرض الدولي للحواسيب (سييت) والذي عقد في مارس 2003م في هانوفر/ألمانيا. وعلى هامش معرض «سييت» قدر مركز شؤون الإدمان في هامبورغ وجود أكثر من مليون مدمن على شبكة الإنترنت في ألمانيا وحدها؛ هؤلاء يعتمدون إلى الجلوس خلف شاشة الحاسوب حتى مطلع الفجر، وهي حالة مرضية تؤثر على كفاءة الإنسان في العمل، وقد تؤدي إلى إرهاق الأعصاب المؤدي بدوره للعنف.

إن هناك قاسماً مشتركاً أعظماً لكل من حالات الإدمان على الكحول والمخدرات والقمار والإنترنت ألا وهو: فقدان السيطرة على النفس مع إهمال الوضع الشخصي والمحيط الاجتماعي، وهي حالة قد تصيب الموظفين المحبطين وبعض ربات البيوت والعاطلين من مختلف فئات المجتمع. ويبدو خطر إدمان الإنترنت أكبر من غيره؛ لأن انكباب الإنسان على الإنترنت غير مدموم، بل قد يشجع عليه في بداية الاستخدام؛ وبينما يترك إدمان الكحول والمخدرات آثاره على صحة الإنسان، كذلك يؤثر إدمان الميسر على دخل الفرد، إلا أن إدمان الإنترنت قد لا يترك آثاراً محسوسة مما يزيد من تعقيدات المشكلة. إذن لا بد من إدخال لوحة تحذير تنهض أوتوماتيكياً أمام عيون مستخدم الشبكة حال تجاوز دخوله فترة معينة، وتقول اللوحة «احذر! منذ متى وأنت داخل الشبكة»!

3- الفضائيات (باعتبارها مصادر سهلة لتعلم العنف):

من الواضح أن وظيفة الأعمال التلفازية لم تقتصر على الترفيه والتسلية بل تعدت إلى مرحلة أكثر خطورة، وهي صياغة المجتمعات، وتشكيل الرأي العام، وإدخال أنماط جديدة على أي مجتمع، وتوصيل الأفكار، وتشكيل العقول خاصة لدى الشباب والأطفال. ونظراً لأهمية هذه النقطة فإنه لا بد من الإسهاب فيها، وعليه يمكن الحديث عن ثلاثة محاور رئيسة هي:

أ- نوعية البرامج التي يشاهدها الطفل في الفضائيات ومواقع الشبكة.

ب- التأثير الاجتماعي للبرامج المختلفة على الطفل.

ج- الحلول التي يمكن بها مواجهة سلبيات البرامج على سلوك وتفكير الطفل.

أما بالنسبة للقنوات الفضائية الخاصة بالأطفال والتي تبث برامجها على مدار اليوم فيمكن تصنيف المواد المقدمة من خلال هذه القنوات إلى عدة أقسام هي:

أفلام الكارتون القصيرة والروائية ومسلسلات الكارتون المدبلج؛ والمسلسلات والأفلام البشرية والأفلام والبرامج العلمية؛ والأغنيات المنوعة؛ وبرامج المسابقات. ولاشك في تأثير الطفل بكل ما يقدمه له التلفاز، الذي أصبح صديقه الحميم، حتى أن بعضهم أطلق على التلفاز لقب الوالد الثالث! ورغم أن للتلفاز مساوئ كثيرة إلا أن له بعض الفوائد والإيجابيات، وقد أصبح بمقدور الطفل الإمام بموضوعات عديدة دون اللجوء للقراءة، كما يساهم الصوت والصورة في توصيل المعلومة إليه بشكل سهل وسريع؛ حتى أن التربية الحديثة تستخدم التلفاز الآن كوسيلة تعليمية.

وتتلخص الآثار الاجتماعية السلبية لبرامج التلفاز في المحاكاة والتقليد والدخول إلى عالم الكبار بما يشمله من عنف وجنس قبل الأوان؛ هكذا يتم تكوين انطباعات غير سليمة، وتتسع الفجوة بين ثقافة الطفل والمجتمع، وزيادة ظاهرة الاستهلاك المادي. كذلك من السلبيات انحسار العلاقات الاجتماعية، والتوقف عن ممارسة الألعاب، واستنفاد وقت الطفل

- أمام التلفاز. ويمكن في هذا الصدد طرح بعض الحلول كما يلي:
- عدم استخدام التلفاز كجليس للأطفال، بل لابد من تقنين مشاهدة الأطفال للتلفاز، بمعنى تحديد ساعات محددة للمشاهدة مع التحكم في اختيار البرامج المطلوب مشاهدتها.
 - لابد من إحكام الرقابة الأبوية بوجود الكبار مع الصغار أثناء عملية المشاهدة، مع محاولة فتح حوار مع الطفل أثناء المشاهدة عما يدور أمامهم، مع تنبيههم للجوانب الإيجابية والسلبية في الموضوع.
 - لابد من تعويد الأطفال على المشاهدة النقدية، مع إيجاد وسائل لاستخدام التلفاز للمساعدة في النمو المعرفي، مع مراقبة الإعلانات التجارية ومحاولة شرح مجال المبالغة فيها.
 - يمكن مناقشة المسؤولين في محطات التلفاز، المحلية والخليجية، بضرورة احترام المشاهد الطفل، واعتباره جزءاً وكياناً مهماً جداً في هذا المجتمع.
 - لمواجهة الأخطار التي تمثلها البرامج المختلفة، لابد من إيجاد استراتيجية في الإعلام العربي، بحيث يكون إعلاماً متطوراً يلعب دوره كسلطة لها دور في تشكيل عقول الناشئة، ولابد أن تتجه استراتيجية الإعلام العربي إلى الأسرة العربية والطفل، الذي أصبح يعيش في زمن العولمة. إن هذه الرؤية الإعلامية الجديدة لابد أن تقوم بها مؤسسات إعلامية ضخمة تملك أساسيات التقنية المتقدمة ومزودة بالمعلومات والمادة الإعلامية، التي تستطيع عن طريقها الهيمنة على عمليات البث والتوزيع في العالم العربي.
 - تنصدر الرسوم المتحركة قائمة المواد المعروضة في برامج الأطفال، برغم احتواء هذه الرسوم على كميات هائلة جداً من العنف بأشكاله المختلفة، سواء اللفظية والحركية والمادية، وذلك لكونها مادة إعلامية غريبة جاهزة. وعليه لابد من أن نكون منتجين جيدين بدل أن نظل مستهلكين، وأن نطور من وسائل التقنية الحديثة لننافس الغرب

لأطفالنا بجودة ما نقدمه لهم.

4- ألعاب الحاسوب (باعتبارها أدوات لتطبيع القتل لدى الأطفال):

الحاسوب قد يكون الهدية المناسبة للحد من نشاط طفلك الزائد، ولن تضطر إلى أن تتعب نفسك بمساعدته في الاختيار، فخياره جاهز بسبب المعرفة التي حصل عليها من زملائه ذوي الخبرة في المدرسة! وما عليك إلا توصيل الحاسوب بتلفاز المنزل. وقد يصبح الطفل أكثر انشغالاً، لكنك لن تتمكن من الاستمتاع ببرامج التلفاز إلا بعد وصلات من الصراع؛ لأن عليك أن تشتري له تلفازاً ملوناً خاصاً، ولن تبدأ رحلتك مع الراحة لأنك ستشغل بذكاء الاشتباك بين أولادك إذا كانوا أكثر من واحد! وقد تظن أنك الراجح وبخاصة بعد أن تخلصت من إزعاج الأولاد في حبسهم مع الحاسوب بعيداً عنك؛ ولكن للأسف فإن ما قمت به لم يكن سوى خطأ في حق أولادك.

صحيح أن لألعاب الحاسوب فوائد، كالتدريب على سرعة رد الفعل، والقيام بالحركة الصحيحة في الوقت المناسب، ودقة الملاحظة والانتباه، هذا عدا عن أن العديد منها يقدم للاعبها معلومات إضافية، وبخاصة إذا كانت اللعبة مصممة أصلاً لتكون لعبة تعليمية. بل إن بعض المؤسسات الأميركية قد وجدت أنه يمكن بتصميم ألعاب الحاسوب بأسلوب معين المساعدة على تدريب الأطفال المصابين بصعوبة في القراءة. كما أن أبحاثاً لمؤسسة الفضاء والطيران الوطنية الأميركية «ناسا» قد أثبتت أنه من الممكن استخدام ألعاب حاسوب لمعالجة الأطفال، الذين يتميزون بالحركة المستمرة لزيادة فترات الانتباه والتركيز لديهم.

ولكن في المقابل، فإن ألعاب الحواسيب مليئة بالمخاطر، معظم هذه الألعاب تركز على القتال الدموي الوحشي الذي تقشعر له الأبدان، فاللعبة التي «تريحك» من الإزعاج هي لعبة يستمتع فيها بضرب خصمه حتى يقطع أوصاله وتخرج الدماء من جسمه كالنوافير، ثم يقطع

رأسه ويمسكه مزهواً بانتصاره عليه وهو يقطر دماً! وقد تكون اللعبة عبارة عن قيادة سيارات وطائرات تخلف الدمار وكرات اللهب المبهرة التي تصيب ضحايا عشوائيين! وربما كانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر مستقاة الأفكار من إحدى ألعاب الحواسيب التي هزت العالم بأكمله. فهل عذرنا أنه لا بأس بذلك ما دام كل الأولاد يلعبون بهذه اللعبة؟ ولكن هؤلاء الأولاد يميلون للعنف الزائد فهل تدع طفلك غارقاً بألعابه المدمرة وتعلم نبأه بعد حين؟!!

أما لعبة «محاربو الشوارع» أو «ستريت فايتر» الدموية فهي الأكثر انتشاراً على جهاز الألعاب. ويمكنك ببساطة ملاحظة الأشكال التي يتغير فيها وجه الطفل عندما يلعب بتلك اللعبة، فمن تركيز كامل على الشاشة لتسديد ما يمكن من ضربات قاتلة على جسد عدوه الافتراضي، ومع تحريك يده وأصابعه بعصبية على جهاز التحكم، ثم الفرحة عندما تتاح له إمكانية الانتقام من خصمه بقتله.. دقائق طويلة مليئة بالعنف والمشاعر التي تختلط فيها الدموية والقسوة وحب الانتقام في عقل ونفسية طفل قد نصفه بالبريء! ولكن ما نسلية به هو أبعد ما يكون عن معاني البراءة.

وبعض الأطفال لا يكادون يصلون إلى بيوتهم، حتى يتوجهوا إلى غرفهم لإكمال لعبة الأمس أو لتجربة لعبة جديدة حصلوا عليها من أصحابهم، وكلما كانت أكثر دموية كانت ممتعة أكثر. وفجأة ترى الأطفال وقد كبروا مع هذه الألعاب، وقد يصل بهم الحال إلى تفضيل العزلة والابتعاد عن الناس، مع ضعف في التحصيل العلمي ووهن الجسد، خاصة إذا صاحب ذلك اللعب العنيف تناول الطعام الجاهز غير الصحي. كذلك من الملاحظ انتشار التلعثم عند الكلام بين الأطفال وظهور بعض الآثار النفسية الأخرى!

ولن يتمكن الآباء من معالجة ذلك بسهولة بل سوف يجارون بالشكوى من عدم

معرفتهم بما حصل لأولادهم الذين لم يجرموهم من أي شيء وبالذات «الألعاب الحاسوبية». وهم لا يدرون أن ما ينغرس في نفوس الأطفال الآن قد يظهر أثره فيما بعد فيما يسمى «التطبيع مع القتل»! إن تلك «الألعاب الحاسوبية» ستبرر لهم كل فعل سيئ ومؤذ فيما بعد، خاصة وأن الأبحاث تشير إلى أن العقل الباطن للأطفال الذين تقل أعمارهم عن سبع سنين حيث يحتفظ بمؤثرات العنف فيه أكثر ممن هم في عمر أكبر. ولن يكون الحل بحرمان الأولاد من الألعاب، بل يمكن البحث عن لعبة حاسوب مفيدة؛ كما يمكن تحديد ومراقبة نوعية الألعاب وما هو مصدرها، ثم تحديد أوقات اللعب مع تشجيعهم على ممارسة الأنشطة الرياضية والاجتماعية المختلفة.

أما مواقع الإنترنت الإباحية فهي خطر مسلط على رؤوس الأطفال بالذات إلا إذا أمكن حمايتهم عبر الفلترة الدولية. وقد وافقت الحكومة الأمريكية على اقتراحين للحد من الوصول إلى تلك المواقع، حيث حرم الاقتراح الأول إنشاء أي مواقع تجارية إعلانية على شبكة الإنترنت لتوزيع ونشر المواد الإباحية. بينما نص الاقتراح الثاني على طرح برامج حاسوبية تعمل عمل الفلترة، ومن المرجح أن يتم توزيعها على المدارس والمكتبات التي تتصل بمواقع الإنترنت الإباحية.

ولابد أن نذكر بعض الإيجابيات للأطفال الذين يستخدمون الإنترنت، لكونهم يتعلمون كيف يعبرون عن أنفسهم بصراحة وبساطة، كما تجعلهم أكثر عالمية وبحيث لا تحدهم حدود. كذلك من الإيجابيات للأطفال الذين يستخدمون الإنترنت تحولهم إلى أطفال أكثر تسامحاً تجاه الاختلافات العرقية والثقافية. كذلك تساهم الشبكة في توفير مجال الرعاية الاجتماعية للمراهقين والمعاقين أو المصابين باضطرابات نفسية أو سلوكية. كذلك تهتم بعض المواقع بقطاع الخدمات حيث يمكن للطفل المريض من التمتع بخدمات الشبكة المتصلة بالبحث عن الوظائف والمصارف والتسوق عبر الإنترنت وغير ذلك من الخدمات التي تمتد

اليوم على نطاق واسع.

ولعل من أبرز ما كُتب حول خطورة التقنيات الحديثة على الأطفال ما جاء في مقال سوسن الأبطح، المنشور بتاريخ 26/11/2002م، في جريدة «الشرق الأوسط»⁽¹⁾.

5- الهاتف الجوال ودوره المباشر في التفكك الأسري:

(1) تقول الكاتبة: «الطفولة ليست في عز مجدها كما يروج بعض المتفائلين، الذين يعطون أطفال اليوم على هدايا العصر المغمومة الآتية إليهم عبر الأطباق اللاقطة أو الأقنية الإلكترونية. ولم يعد من شك في أن ديزني لاند بمباهجها وأفلام الكارتون بغوايتها وأجنحة الألعاب المدللة في المراكز التجارية الضخمة، هي الواجهة للماعة التي تخفي وراءها الفخاخ المنصوبة لتصيد الفضول الطفولي واستغلاله بأدهى السبل فنية وأناقته. وقد تتبأ علماء النفس منذ عام 1900م بأن القرن العشرين سيشهد ثورة يتشكل خلالها مفهوم جديد للطفولة، وبعد مائة سنة على تلك النبوءة فإن الموجة قد وصلت إلى ما لم يكن في الحسبان، حيث إن كل ما زاد عن حده ينعكس إلى ضده. وكل الدراسات حول التلفاز والألعاب والإنترنت والسينما تقيد بأن الطفولة تُخطف بالفعل، وأن الصغار يتعرضون لجلد نفسي وغسل دماغ لصالح أحلام هذه الشركة أو تلك. وإذا وضعنا العنف والجنس جانباً، فإن الإعلانات وحدها كافية لإحداث الزلزال، إذ يشاهد الطفل الفرنسي مثلاً 3 آلاف إعلان في السنة، بينما يرتفع عدد الإعلانات التي يشاهدها الطفل الأمريكي إلى ثلاثين ألفاً، بحسب اتحاد المستهلكين هناك، ولا أحد يعرف بطبيعة الحال، عدد تلك التي يشاهدها الطفل العربي، إلا أن السويد حسمت أمرها ومنعت الإعلانات في فترات البث المخصصة للأطفال؛ لأن هؤلاء لا يميزون قبل سن الثانية عشرة بين الإعلان والبرنامج الوثائقي أو بين الحقيقة والخيال. إن الإجراء السويدي الجريء ناجع بحدود، إذ أن إحصاءات أخرى تشير إلى أن ثلاثة أرباع ما يشاهده الصغار، موجه في الأصل للكبار، وبأن أدمغة الأطفال منبهة بحيث تلتقط ما لها وما لغيرها، ولذلك فالمعمل جارٍ في دول أوروبية عديدة لتخفيف الصدمة على العود الطري قبل أن تكسره مشاهد الغدر والقتل والتشويه والمطاردات بين الأخيار والأشرار. فقد تبين أن 80 في المائة من الأفلام الأمريكية التي تعرضها الشاشات الفرنسية تحوي مشاهد مثيرة للاضطراب، وهذه الأفلام تحمل في غالبيتها رسالة مفادها: «يجب أن تحطم الآخر كي تريح»، وهو ما يتناقض تماماً مع التقليد التربوي المتعارف عليه الذي يحاول أن يقنع الأطفال بأن: «من يلجأ إلى العنف لحل مشاكله يحتاج إلى علاج لحل عقده». هكذا فإن المفاهيم تتضارب حد التضاد. وإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن الأطفال الفرنسيين يشاهدون التلفاز بمعدل ألف ساعة في السنة، أي ما يوازي الوقت الذي يقضونه على مقاعد الدراسة - والأرجح أن الأرقام العربية ليست بعيدة عن هذه الحدود - فإن السؤال الحرج المطروح هو: لمن ستكون الغلبة في المعركة الدائرة بين الأستاذ بإمكانياته المتضائلة والمنتهج بمعداته سريعة التطور؟ خاصة أن الأهالي باتوا أشبه بالمخدرين، وقد مستهم الفتنة بأخطر مما فعلت بأولادهم، وغدوا أكثر تعلقاً منهم بالمسلسلات والأفلام وبرامج الألعاب والدعايات أيضاً. لذلك فحين يقرر الأهل معاقبة أحد أولادهم يقولون له بثقة وحزم: «إذا لم تدرس تحرم من التلفاز»، أي أن الشاشة وما ترشح به من مؤثرات مموهة هي في اللاوعي «مكافأة يستحقها المجتهد» وأية مكافأة! والأسوأ من ذلك أن مدمني التلفاز هم أنفسهم عشاق الإنترنت، ومن يفلت من قبضة هذا يقع في شباك ذاك. وبما أن القضية على هذا القدر من الجدية، فلا بد أن نسعى لاحتواء مضامين الشاشات وتطويعها وتهذيبها».

في هذا العصر يختصر الجوال المسافات البعيدة والقريبة أيضاً! وقد يظل الفرد قابلاً في غرفته الخاصة ويحدث أخيه في الغرفة المجاورة بالجوال! هكذا ينقطع التواصل الحميم بين أفراد الأسرة، وتختفي تلك النظرات المؤثرة ليحل مكانها الصراخ والشجار حول من سيدفع تلك الفواتير الطويلة الباهظة الثمن. وفي منظور آخر أكدت دراسة حديثة بأن الرسائل الموجهة عبر الهواتف النقالة قد أضفت سبباً جديداً لأسباب العنف والطلاق في دولة الإمارات العربية المتحدة، التي تعاني أصلاً من نسبة ارتفاع الطلاق بين أبنائها. وقد نظرت دائرة الإصلاح والتوجيه الأسري في محاكم دبي، والتي تتولى مهمة إصلاح ذات البين بين الأزواج، في الكثير من حالات الخلاف الزوجي المؤدية إلى الطلاق بسبب الرسائل الواردة عبر الهاتف النقال.

وحالة أخرى سببها قراءة زوج لرسالة عادية على هاتف زوجته أرسلها مدير الشركة التي تعمل بها الزوجة على سبيل الممازحة، وحلف الزوج أغلظ الإيمان على أن لا تبقى زوجته في ذمته، وأن الرسالة ستكون نهاية لعلاقة زوجية استمرت ست سنوات وأثمرت أطفالاً أبرياء. ويقول الموجه الأسري في محاكم دبي بأنه لم يكن متوقعاً أن تصبح الرسائل الهاتفية سبباً رئيسياً للطلاق، لكن تعدد الحالات التي تنظرها الدائرة تشير إلى أننا أمام ظاهرة تستوجب النظر فيها وتوعية الناس بخطورتها، خاصة أن بعض الزوجات يقمن بعد قراءة الرسائل بالاتصال بالأرقام المرسله لهذه الرسائل، ويكتشفن حقائق غير متوقعة. الجدير بالذكر أن دراسة أعدتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في الإمارات في العام 2002م أكدت أن التقنية الحديثة، وخاصة الإنترنت، أصبحت من الأسباب الرئيسة للطلاق في الإمارات، سواء من جهة انشغال الزوج عن أسرته لساعات طويلة؛ أو لظن الزوجة بأن زوجها على علاقة بامرأة أخرى قد تكون في بلد آخر على بعد آلاف الأميال

وربما «هي» أصلاً رجلاً انتحل صفة امرأة.

- دور التقنيات الحديثة في تعليم التفنن في وسائل التعذيب:

إن وسائل التعذيب التي تظهر من خلال التقنيات الحديثة قد أثارت القلق من حيث عدم توافقها مع حقوق الإنسان في حرمة البدن وسرية الحياة الخاصة. كذلك يحدث اليوم انتهاك واضح في حريات الأفراد في المراقبة الفكرية والبدنية من خلال أجهزة التنصت البصرية والسمعية والمراقبة من خلال استخدام المعلومات الشخصية. وبتسهيل من التقنيات الحديثة صار مصير الأرواح البريئة تحت رحمة مخططات ومؤامرات تجري دون عدل أو شفقة مما يعرض الأبرياء للتدمير والقتل المجاني، وفي أحسن الحالات للنبذ والتجويد والإهانة وربما للسلب والاعتصاب والقهر والتشريد والنفسي. ولم تغير التقنيات الحديثة من شراسة الحروب بل لقد زادت من ضرورتها، لقد أزهدت الحروب الحديثة ملاييناً من الأرواح البريئة، والتهمت بنيرانها الثروات البيئية والنعيم، التي وهبها الله عز وجل بكل سخاء للبشرية⁽¹⁾.

(1) للمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى المراجع الآتية: بركات محمد مراد، ظاهرة العولمة (رؤية نقدية)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة - قطر، كتاب الأمة (86)، 2001م؛ شعاع هاشم اليوسف، التقنيات الحديثة (فوائد وأضرار)، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة - قطر، كتاب الأمة (112)، 2006م؛ شوقي أبو شعيرة، انتحار الحضارة: فوضى القرن العشرين، (القاهرة: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، 1994م)؛ معهد بحوث الأمم المتحدة للتنمية الاجتماعية UNRISD، حالات فوضى والآثار الاجتماعية للعولمة، ترجمة عمران أبو حجلة (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1997م)؛ نخبة من الباحثين والكتاب، رسالة المسلم في حقبة العولمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مركز البحوث والدراسات، الدوحة - قطر، 2003م؛ شعاع هاشم اليوسف، حضارة العصر الحديث، واقع من منظور مختلف، المجلس الوطني، الدوحة - قطر، 2002م.

علاج العنف

يمكن طرح مجموعة من الحلول لمعالجة ظاهرة العنف الاجتماعي، من ذلك:

أولاً: حلول اجتماعية:

يمكن طرح بعض الحلول الاجتماعية لمعالجة العنف كما يلي:

1- قد تحاول مؤسسات المجتمع المدني القيام بأدوار مختلفة للتصدي للمشاكل الاجتماعية المسببة للعنف، لكنها حتى الآن لم تعط الحلول المناسبة التي تقمع العنف من جذوره، إذن لا بد من العمل بكفاءة أكبر لمواجهة هذا المرض العضال. ولا شك بأن الدور الأكبر مطلوب من المؤسسات الحكومية وذلك بالمساهمة في تقنين تقنيات العنف، حيث إنه ليس المقصود بالتقدم التقني تسهيل الحصول على التقنيات كيفما اتفق مع ضياع القيم الاجتماعية والوطنية، لكن لا بد من المراقبة الجادة والتوجيه المستمر.

2- تشير أصابع الاتهام إلى الإعلام بوصفه السبب في خلق عقليات تابعة ومضطربة ذات نفسيات مشتتة بين الأصالة والعمولة. وعليه يجب أن تكون لقنوات الإعلام المختلفة أدوار فعالة في محاربة مظاهر العنف، كما يمكن لكليات الإعلام طرح ذلك التخصص وعمل الكثير من البحوث والدراسات حتى توجد الأصوات الإعلامية القوية القادرة على مناهضة التفسخ الأخلاقي والتسيب الديني. إن خط الإسلام على الإنترنت وبعض برامج القنوات الإسلامية الفضائية، صالحة لأن تكون منارة للفكر الحي المتألق وللتواصل الروحي الراقى مع روح العصر. ولا ريب في أن بعض برامج القنوات الإسلامية بحاجة إلى دراسات مستفيضة ودقيقة قبل البدء بها، وفي هذا الصدد عليها القيام بتطوير ثقافتها الدينية بما يتناسب وروح العصر، أما الإعداد للجانب الثقافي منها فأمر شديد الخطورة؛ لأن هذه القنوات تعرض على مجتمعات لا تعرف شيئاً عن الإسلام، بل تعرض على من

هم محاطون بعشرات المحطات الغربية ذات المفاهيم المضادة للأديان عموماً، أو بتغليب المادة على الدين في أحسن الأحوال. كذلك قد نجد في بعض المحطات ذات التعددية الثقافية أن صوت الأديان ضعيف جداً، ومن الأفضل التركيز على الدين كبديل روحي وتقويمي لمعالجة الانحراف الخلقي الذي ما تزال تفرزه حضارة الغرب والذي يقضي على ألوف الشباب في كل عام بالانتحار أو بإدمان المخدرات أو بارتكاب العنف والجرائم الأخلاقية. هكذا تقع على علماء الدين والنفس والمربين مسؤولية التطوير الدائم للعقائد وصبها في وسائل إعلامية ذات أساليب حديثة أهدافها توعوية للأجيال المعاصرة. ولاشك في أن إشباع الرغبات البيولوجية والتسلطية بعيداً عن القيم الدينية يوصل الفرد إلى التهلكة لا محالة كما يوصل الدول والحضارات إلى الانهيار.

3- مما لا شك فيه أن لكل من الأسرة والمدرسة والمجتمع دوراً إيجابياً في نبذ العنف. وقد نركز على دور المرأة (الأم والأخت والزوجة والمعلمة) كونها قد اخترقت في العالم الإسلامي فضاءات العلم والمعرفة بل وأصبح لها في المجتمع حضور ثقافي متميز. وقبل أن تقوم الحركة النسائية في دول العالم الإسلامي بالنظر في مشاكل المرأة كقضايا العنوسة والطلاق، لابد لها من توليد اتجاهات جديدة حول المشاكل التي قد يسببها عمل المرأة، هذا الذي أصبح موضحة العصر تسعى معظم النساء من أجله دون النظر لسلبياته المتعددة. ومن أخطر السلبيات الاعتماد الكبير على الخدم والتقنيات، التي تضر بالصحة النفسية والجسدية لأفراد العائلة، وهي بلاشك عامل مهم في شيوع العنف. لقد آن اليوم الذي لابد أن تستيقظ فيه الحركات النسائية في دول العالم، وذلك بأن تضع دراسات وبحوثاً جادة عن أثر عمل المرأة على تربية وصحة النشء وعلى استقرار الأسرة. كذلك لابد أن نسلط الضوء على ظاهرة استفهام الخدم والمربيات وملازمة التقنيات لأطفالنا وتأثير ذلك كله على نسبة الطلاق المتصاعدة وعلى ظهور أمراض العنف المستعصية.

كذلك لا بد من وقفة تأمل وتدبر في هذا المجال، بحيث يكون من أهم أدوار الحركة النسائية في دول العالم الثالث الاستفادة من تجارب الأمم الأخرى، التي سبقتها في معالجة قضايا المرأة، خاصة وأن تلك الأمم تجني اليوم المر والعلقم. وبعد أكثر من مائة عام وبالرغم من الثقل الجوهري للمرأة الأمريكية في سوق العمل إلا أن الحركة النسائية الأمريكية تراجعت بشدة عن تشجيع المرأة العاملة، بل وانصبت الجهود اليوم على توضيح الآثار السلبية الاجتماعية والصحية والتربوية الناجمة من عمل المرأة، سواء على مستوى تربية الأجيال أو على مستوى المنافسة وانتشار بطالة الرجال بسبب توظيف النساء أو بسبب الاتكال على التقنيات. وقد نشرت بعض الرائدات في الحركة النسائية الأمريكية كتاباً مضاداً لعمل المرأة. وعلى سبيل المثال فقد استقالت «ديورا فالوس» مؤلفة كتاب «عمل أم A Work mother's» من عملها كمديرة لجامعة أمريكية وتفرغت لتربية أطفالها. أما الكاتبة «جين شرويدل» فقد أصدرت كتاباً بعنوان «وحدني في الزحام» تشرح تجربة عمل النساء وسط الرجال وما يتعرضن له من مضايقات غاية في الصعوبة والحرج بالإضافة لضغوط تدبير المنزل وتربية الأطفال. كما تم شرح ذلك بالتفصيل الدقيق في كتاب بعنوان «الجنس الثالث» للمؤلفة «باتريشيا ماكبروم» التي تؤكد تشرب النساء العاملات بجرعات كبيرة من الذكورة والعدوانية، هكذا ظهر الجنس الثالث في حضارتنا الحديثة بشكل امرأة يخالط تكوينها وتصرفاتها ومزاجها الكينونة الذكورية.

وربما تجدر الإشارة لكتاب «أسطورة تحرير النساء في أمريكا» للكاتبة الأمريكية «سيلفيا هوليت» التي تستعرض فيه دراسات عديدة حول عمل المرأة وتخرج بنتيجة حتمية ألا وهي استحالة توفر الشروط الملائمة للتوفيق بين تربية النشء بصورة سليمة وبين أداء عمل جاد خارج المنزل؛ إضافة إلى الضرر الكبير الناتج من استخدام التقنيات السريعة في الطبخ والتنظيف وغير ذلك.

أما أستاذ العلوم السياسية «أندرو هاكر» في كلية «كوينز سيتي» في نيويورك فقد نشر في مجلة المرأة في العدد (77) مقالاً مدعماً بالأدلة القاطعة حول تراجع المجتمع الأمريكي عن تأييده لعمل المرأة، وذلك نظراً لطغيان سلبيات العمل على الإيجابيات وبالذات في ما يتعلق بالأمومة وصحة المرأة، بالإضافة لعدد من المشاكل الصحية والاقتصادية والسياسية والتربوية التي أثبتت خطورة خروج المرأة لسوق العمل. بعد ذلك صدرت الكثير من الكتب الأجنبية التي تعالج تلك المشاكل، ومنها حقوق المرأة التي تم اكتسابها على حساب الرجل الذي عادة ما يفقد فرص العمل (كسكرتير مثلاً) مما جعل الكراهية والتنافس البغيض يشتعل بين الجنسين. إن دور الحركة النسائية في الدول الإسلامية هو التصدي لعمل المرأة من دون ضرورة جرياً وراء ما يسمى بالحرية والمساواة.

ثانياً: حلول عملية:

يمكن طرح الكثير من الحلول العملية للحد من أساليب العنف إلا أنه يبقى أن من أهمها:

- تعزيز الإبداع:

إن متطلبات الأمة الإبداعية يجب أن تكون قائمة على التوازن بين متطلبات العقل والروح والجسد، ولن تتغير أحوال الأمة إبداعياً إلا إذا نبذت فكرة قبول الفراغ. إن أدق عبارة لوصف الإبداع هو أنه صناعة متميزة لاستثمار أفكار العلم والدين والمجتمع والثقافة وصبها في قوالب جديدة مفيدة للبشرية. لكن هل يولد الفرد مبدعاً أو متميزاً أو أنه يمكنه اكتساب الإبداع؟

والجواب: إنه من السهل تطوير الإبداع لدى الأفراد كل على حسب قدراته، بدءاً من الكتابة وحتى تنمية مهارة الاختراعات البسيطة التي لا تضر البيئة. وقد يتطلب ذلك

تدريب الأطفال على الاكتشاف المبكر للبيئة من حولهم، ثم إعطاؤهم الفرصة لاستكشاف عوالم الجمال في العالم بأسره. ولا شك في أن أدوار كل من الأسرة والمدرسة والمجتمع والإعلام تساهم في صناعة المبدع. ويمكن تأسيس عدد من المراكز الشبابية المتخصصة في تطوير الإبداع مما يشبع كافة الهوايات والمواهب، مع إضفاء الشفافية ووضوح الرؤية، كما تعطي القوة والهمة للنفس البشرية.

يحتاج الإبداع إلى تطوير، فكما انقرضت أجناس من الحيوانات؛ لأنها لم تتطور أو لم تحسن التأقلم مع معطيات الطبيعة الجديدة، للأسباب نفسها، قد تنقرض الأمم إبداعياً إلا أن تتداركها الأجيال الجديدة بالتطوير والتحديث. ومن هنا نضع عدداً من الاقتراحات في كيفية استغلال الوقت في إبداع أنشطة ممتعة ومفيدة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

- 1- صقل المهارات اليدوية في صناعة النسيج والسدو والتفصيل والخياطة وغيرها.
- 2- المشاركة في الدورات الخاصة بصناعة الخزف بكافة فنونه وأشكاله.
- 3- تنمية هواية النحت والرسم الزيتي والتصوير الفوتوغرافي والخط العربي والزخرفة وغيرها.
- 4- المشاركة في فنون الموسيقى والأناشيد الإسلامية والتمثيل وغيرها.
- 5- المشاركة في فنون الجرافيك بالوسائل المختلفة، خاصة باستخدام التقنيات الحديثة.
- 6- متابعة عرض الأفلام الترفيهية والتعليمية والتدريبية في المجالات المختلفة.
- 7- المشاركة في الدورات الخاصة بالحواسيب وبرامجها المختلفة.
- 8- المشاركة في الدورات الخاصة بالبرامج الرياضية المختلفة.

- 9- التدريب على الأجهزة الحديثة في الدفاع المدني والإسعافات الأولية.
- 10- التدرب على طرق الطهي الصحي وتقديم الأطباق بطريقة مميزة.
- 11- الاهتمام بموايات خاصة كجمع الطوابع والشعارات التذكارية وغيرها.
- 12- المشاركة في البرامج المهنية كالنجارة والحدادة والصباغة والسمكرة وغيرها.
- 13- تنمية حب التطوع والخير للإنسانية جمعاء: لا شك في أن التطوع خدمة إنسانية جلية، وربما تحتاج فكرة التطوع إلى تعزيز روح الإيمان بالأهداف الإنسانية التضامنية التي تقوم عليها فكرة التطوع وبالعامل العظيم الذي يؤديه الإنسان خدمة للمجتمع بلا مقابل مع توعية الأجيال بأهمية التعاون ومردوده النفسي المبهج. إن جذب الأفراد للانخراط في حقل العمل الإنساني العام يستلزم نشر المعاني السامية للتطوع كفرصة مواتية لتخفيف المعاناة عن الآخرين، ولاكتساب الرضا عن النفس مما يجعل حياة الفرد هدفاً ومعنى. بالمقابل على الدولة أن تضع في اعتبارها أن حسن قيام الفرد بالتطوع مرهون بالتقدير والعدل وتنمية الولاء للوطن والإحساس بالمسؤولية نحو المجتمع. إن أي حقل من حقول التطوع يستلزم المبنى المناسب وقدرًا من الميزانية لتحقيق الكثير من احتياجات المتطوعين التدريبية والنفسية والترويحية والثقافية. والمتطوع ليس أداة جامدة بل يحتاج للتطوير والرقى وكذلك لإزالة العقبات التي تعترض تقدمه أولاً بأول. ولا بأس أن تنشأ مراكز خاصة بتعلم التطوع تتبع مركزاً للمهارات الحياتية بصورة عامة أو مركزاً للإمكانيات البشرية، ولن ننسى أن القيام بمشاريع خيرية مدروسة يتطلب تأهيلاً خاصاً، ويمكن أن يتم ذلك عن طريق إلحاق الشباب بدورات تأهيلية خاصة بالعمل الخيري؛ وقد حرصت المؤسسات الغربية على إنشاء أقسام خاصة بالتدريب والتأهيل، تقوم بالإعداد والتدريب، بحيث تواكب مستجدات العمل الخيري وما يرتبط بها من تغيرات اجتماعية وانفعالية وغيرها. ولا شك في أن توفير خدمة الإنترنت سوف

تسهل المهام وتحقق الأهداف على أكمل وجه، كما سوف يتم تنفيذ الدورات بالسرعة المطلوبة، كما تطالعنا وسائل الإعلام المختلفة بأنشطة الجمعيات والمؤسسات الخيرية متمثلة بمشاريعها وإنجازاتها في مجال الدعوة وأعمال الخير على مستوى العالم. إن الدور البارز الذي تقوم به المؤسسات الخيرية يظهر من خلال مواقف مشرفة مختلفة يمكن تصنيفها إلى التالي:

- مشاريع إقامة المساجد وإنشاء مراكز لتحفيظ القرآن الكريم.
- إنشاء المراكز الصحية.
- حفر الآبار التي يزداد عددها بصورة مطردة.
- المشاركة في تنظيم كفالة الأيتام التي لها دور عميق في إرساء مبادئ الكفالة الإسلامية والتعاطف الإنساني.
- كذلك تظهر مشاركة المؤسسات الخيرية في حملات الإغاثة الفعالة أثناء المجاعات والفيضانات وتقديم المساعدات المادية والعينية، كتوزيع المواد الغذائية أو الأموال على الأسر المحتاجة والمتضررة.
- مساعدة المعاقين أو إسداء الدعم للجمعيات الخيرية وجمعيات مكافحة السرطان أو السكري وغيرها من الجمعيات التوعوية.
- المشاركة في الحملات التطوعية الخاصة بالإغاثة في الزلازل والمجاعات وغيرها من الكوارث الطبيعية.
- يمكن المساهمة في نشر التوعية بحقوق الإنسان بصورة عامة والمواطن بصورة خاصة؛ كذلك الدفاع عن قضايا اجتماعية أو التنويه بأعمال تستحق الإشادة بها.

ثالثاً: حلول علاجية نفسية:

يمكن طرح عدد من الحلول العلاجية النفسية للحد من أساليب العنف، من خلال أساس الارتكاز إلى أن الفرد يصل للتوازن النفسي ومن ثم للشخصية المترابطة المتزنة عند تحقيق ما يلي:

- وجود إشباع معقول للحاجات البيولوجية، مع وجود إشباع عاطفي وروحاني مما يحققه التدين المعتدل في الغالب، كذلك عند تكامل القدرات والأنشطة العقلية العامة مع التوافق الاجتماعي.

- وجود أعمال ذات إنجازات تخفض التوترات السلبية وتزيد من الأحاسيس الإيجابية مثل الأنشطة الترفيهية والمشاركة في التطوع الاجتماعي.

وقد قطعت علوم النفس والاجتماع وعلوم ما وراء الطبيعة شوطاً كبيراً للوصول إلى ما يسمى بعيادات التدريب على الحياة لحل المشاكل النفسية بحدوء بدون أدوية، بشرط أن ينبع الحل من الفرد المستعد لتغيير نمط حياته وطريقة تفكيره. مدرب الحياة أو «life coach» هو اسم المهنة باللغة الإنجليزية، ويعني أن صاحبها هو الشخص الذي يستطيع أن يعلم الناس كيف يديرون دفة حياتهم في الاتجاه الصحيح، وفي اكتشاف الطاقات الكامنة التي قد تجعلهم في حال أفضل مع اكتشاف طرق جديدة لحل المشكلات. وتتأثر شخصية الإنسان بخمسة عناصر، هي: الحب، والمجتمع، والعمل، والمال، والجانب الروحي، وأيُّ خلل في أحدها يجعل الإنسان أسيراً للفشل وبمحااجة إلى مدرب للحياة. ومدرب الحياة يختلف عن الطبيب النفسي فهو لا يكتب أدوية لمرضاه، ويختلف عن المعالج الروحاني فهو لا يلجأ إلى طقوس السحر والدجل وما شابه، كل ما يفعله أنه يجلس مع «المريض» ثماني جلسات كحد أقصى، للوصول إلى علاج.. وطريقة العلاج التي يتبعها عادة مدرب الحياة أنه يناقش جوانب المشكلة المختلفة، فقد تكون هناك رؤية لم يلتفت إليها، أو جانب مضيء يمكن أن يوصل إلى الحل. وفي حين يعمل الطبيب النفسي على علاقات قديمة، مثل

الإدمان، أو الاكتئاب، أو العقد النفسية فإن عمل المدرب يرتبط بالمستقبل وحل مشاكل الواقع خاصة تلك المرتبطة بالعنف. وقد يكون الفرد ناجحاً من وجهة نظر المجتمع لكن بداخله إحساس بالفشل، لأن المجتمع لم يتركه يفعل ما يجب، وقد تكون ضغوط المجتمع أحد أسباب فشل الكثيرين ممن يجدون في العنف متنفساً.

رابعاً: تعزيز المودة والعلاقات الطيبة:

في ظل حضارتنا المعاصرة قد يفتقد الفرد المودة والعلاقات الطيبة، وعلى ذلك تزداد موجة العنف. ولا شك في أن علاقات المودة تطيل العمر وتفيد صحة الإنسان الجسدية والنفسية والمعنوية، بل يُجمع علماء النفس والكيمياء الحيوية على أن الإنسان لا يستطيع العيش حياة سوية طويلة من دون الحب. ومفهوم الحب واسع جداً لأنه يتسع ليشمل الهوايات وغيرها من الاهتمامات الخاصة؛ وجميع الأنشطة التي يركز فيها المرء على عمل تنقطع معه علاقته بالزمن هي أنشطة حب. ومن أسباب طول العمر بين النساء أن نصيب الحب في حياتهم أكبر، فلديهم أحباب يحبونهم، وأطفال يحبونهم وآباء يحبونهم، فهن عناصر الحنو الرئيسة على الأرض.

وقد أشارت دراسة علمية نشرت في مجلة «التايم» في عام 2004م إلى أن الرغبة في الحب رغبة فطرية، يمكن التعرف عليها لحظة خروج الطفل من رحم أمه واستقباله للعالم الخارجي، وذلك عندما يرفع ذراعيه إلى أعلى معبراً عن احتياجه إلى حضن يحميه، ثم يظل الإنسان يشعر بالحنين إلى من يحتضنه حتى يصل إلى العلاقة المتكاملة مع شريك حياته. وقد تبين للعلماء أن تلك الرغبة مسألة معقدة تظهر في مواقف معينة مثل لحظات الشعور بالخوف أو في المواقف المأساوية. وقد تأكد العلماء من صحة الفكرة التي تقول: إن 95% من العلاقة الحميمة تنشأ في المخ. كما توصلت الدراسة إلى أن

المرأة أكثر تأثراً بالكلمات العاطفية والمزاج والمناخ المحيط بها، في حين أن الرجل أكثر تأثراً بالمؤثرات المرئية. وعلاقة الحب لها تأثير على المخ ثم القلب وجهاز المناعة والغدد المختلفة. إن هرمون «الأوكسيتوسين» هو المسؤول الأول عن الآثار الإيجابية طويلة المدى للعلاقة الودية، وعندما يفرز هذا الهرمون فإنه يسير في الدم وينتقل إلى جميع الأنسجة حتى الأنسجة البعيدة، وهذا يؤدي بدوره إلى تنظيم حرارة الجسم وضغط الدم ويساعد على التئام الجروح وتخفيف الألم. كما لاحظ الباحثون الارتباط بين تبادل المودة وانخفاض الإصابة بسرطان الثدي عند المرأة وسرطان البروستاتا عند الرجل، وهي علاقة غير مفهومة حتى الآن بالنسبة للعلماء وما زالت أبحاثهم تدور حول إيجاد تفسير لها.

خامساً: بناء العقيدة والالتزام بمبادئ الدين:

إن عقيدة التوحيد ترتفع بكرامة الإنسان، وتحرر العقول من الخضوع للخرافات والماديات، وهي تلقائياً تنتهي إلى المساواة بين الناس؛ لأن خالقهم واحد، وهم جميعاً عبيد لهذا الإله الواحد. ويتميز الإسلام بالقدرة على توحيد البشر بمختلف أعراقهم ولغاتهم، والنهي عن التفرقة العنصرية، والحث على العطف والشفقة حتى على النبتة والحيوان. ولا شك في أن هذه المواقف الإنسانية هي المفتاح السحري الذي افتتحت به قلوب البشر للتوجه نحو الإسلام، الذي أتاح الفرصة لأهل الأديان الأخرى بأن يحكموا بشرائعهم الخاصة، وهو ما لم تبلغه أنظمة حديثة تتباهى بحفظ حقوق الإنسان! وقمة التسامح الإسلامي تظهر في السماح للمسلم بالزواج من كتابية، وفي ذلك الكثير من التسهيل ومن تقوية وشائج القرى بين المسلمين وأهل الكتاب. لقد أصبحت مقولة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الشهيرة «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً» مقولة تفتتح بها دساتير العالم، وجدير

بالمسلمين اليوم أن يجاروا بها الظلم والاستبداد. كما وقد تم تطبيق هذه العبارة بشكل واسع على امتداد الحضارة الإسلامية، فهي حضارة الرحمة بالمساكين والضعفاء وصيانة حقوق الأقليات. وربما يتمكن المسلمون اليوم، وعلى هذا الأساس الإنساني، من استنباط قانون دولي للمسلمين ينظم علاقاتهم بغير المسلمين، فتكون الحضارة الإسلامية هي حضارة المستقبل من حيث الأمن والسلام الاجتماعي في مختلف صورته الإنسانية المتطورة الراقية.

وكما زود الله عز وجل الجسم بالمضادات الحيوية التي تقاوم الميكروبات، كذلك لابد من وجود أجسام مضادة وقائية لمواجهة العنف الفكري والأخلاقي المهدد لسلامة المجتمع، ولا يوجد أفضل من الثقافة الدينية المتماشية مع روح العصر لمواجهة هذا العنف. وفي الدين الإسلامي الكثير من الآيات القرآنية التي تحث على تركية النفس ومنها: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾﴾ (الشمس: 7-9)، ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ (العصر: 1-3). كذلك الحرص على الكلمة الطيبة ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿١٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿١٥﴾﴾ (إبراهيم: 24-25)، ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ (الإسراء: 53).

كما أن هناك كثيراً من الأحاديث الشريفة تؤكد مثل هذه المعاني وتدعو لها، مثل: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ»⁽¹⁾؛ «سُوءُ الْخُلُقِ سُوءٌ»⁽²⁾؛ «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ، وَلَا اللَّعَّانِ، وَلَا الْفَرَّاحِشِ، وَلَا الْبَيْدِيِّ»⁽³⁾؛ «الْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»⁽⁴⁾؛ «إِنَّ الرَّجُلَ

(1) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب.

(2) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب.

(3) أخرجه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(4) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان.

لِيُذْرِكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَرَّامِ»⁽¹⁾؛ وكذلك «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صِيَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽²⁾.

كذلك فإن المبادئ الإسلامية تحث على تربية النفوس، وعلاج أمراض القلوب، وغرس الفضائل، وانتزاع الرذائل، والتدريب على الصبر والرضا في ممارسة الطاعات، إنها أيضاً حضارة النظافة والطهارة والتأمل في جمال هذا الكون. والتربية الإسلامية تعتمد على تماسك الأسر، وتحث على علاقات حسن الجوار ومكارم الأخلاق، فهي مثالية في مقاومة سلبيات الحضارة المعاصرة المتمثلة في التفكك والانحلال.

بالإضافة للأديان السماوية الثلاثة المعروفة، يوجد في العالم ما يربو على ثلاثمائة عقيدة، وما يزيد على ثلاثة آلاف مذهب متفرع من تلك العقائد، هكذا تظهر الحروب الطائفية والعنصرية والتفكير المتزمت مما يقلل من توجهات الفرد الحديث نحو الأديان بصورة عامة؛ ويتطلب ذلك من المربين ومن علماء الدين تطوير سبل المواءمة بين أسس الدين وبعض معطيات الحضارة الحديثة الضرورية جداً لبناء كيان الفرد المعاصر. لكن بالمقابل توجد إيجابيات كثيرة لدى الفرد معتدل التدين، ولا شك في أن العقيدة المتوازنة (دون إفراط أو تفريط) إنما هي حصن حصين في مواجهة أساليب العنف المختلفة.. ولمبادئ العقيدة التي يؤمن بها الفرد دور مهم في تحديد توجهاته وفي تنظيم حياته وفي جعله متناغماً مع أدوار الحياة. ولاشك في أن للأديان الدور الأهم في حياة البشرية، لأنها في اعتدالها تصبح من أهم مسببات الحياة الطيبة والهدوء النفسي البعيد عن العنف. وقد توصل الباحث في جامعة «ديوك وبتيلور» في أمريكا إلى أن الإيمان العميق بالله تعالى وتقوية الصلة به من أقوى دواعي الشفاء من الأمراض النفسية؛ كما أن هناك أدلة كثيرة

(1) أخرجه الإمام أحمد.

(2) أخرجه الإمام أحمد.

دامغة تؤكد أن الرباط الروحي بالله سبحانه وتعالى يبعث السلام والسكينة في النفس. وقد أدخلت كلية الطب في جامعة «تكساس ساوث ويسترن» مادة جديدة في مناهجها تتعلق بالروحانيات وكيفية الدعاء لنشر السلام.

كما رصدت معاهد الصحة القومية بالولايات المتحدة الأمريكية آلاف الدولارات لإجراء دراسة حول إثبات العلاقة بين الدعاء ودوره في إحلال السلام. وقد شملت هذه الدراسة المهمة أكثر من أربعة آلاف شخص، وكشفت أن الذين يواظبون على الصلاة، يتمتعون بضغط دم أفضل من الذين لا يواظبون على الصلاة، وهم يتمتعون بضغط دم أفضل من الذين لا يؤدون الصلوات بتاتاً! وأنه كلما كان المرء أتقى لربه كان ضغط دمه أكثر انخفاضاً ويميل إلى السلام والمودة. كما أن الناس الذين يداومون على الصلوات ويتلون آيات من كتاب الله يكونون أقل عرضة للإصابة بالأمراض من الذين لا يأترون بأوامر الكتب السماوية ولا ينتهون عن نواهيها.

كما كشفت دراسة أجريت على المرضى بمستشفى «سانت لوك» بجامعة «تكساس» بأن المرضى الذين يجدون من يدعو لهم بالشفاء تتحسن حالتهم الصحية بنسبة 11%، وهم أفضل من الذين لا يجدون من يدعو لهم، حتى لو كان المريض لا يعلم بأن ثمة من يدعو له أي الدعاء بظهر الغيب. ومن المعروف أن الدعاء للنفس يخفف من حدة التوتر الذي يؤثر تأثيراً إيجابياً على جهاز المناعة، لكن كيف يخفف دعاء الآخرين للمرضى بظهر الغيب من وطأة المرض؟

والتفسير الوحيد هو قدرة الفرد الصالح على أن يهب بعضاً من طاقته، بمباركة الله عز وجل، لمن يريد. وقد أجرت كلية الطب بجامعة «الكومولث» دراسة شملت تسعمائة وواحد وخمسين توأمًا، كشفت عن أن أولئك الذين يضعون الدين في مقدمة أولوياتهم يكونون أقل عرضة للإصابة بالاكنتاب أو بإدمان الكحول أو التدخين من نظرائهم

الذين لا يراعون في الله ذمة ولا عهداً، كما أن حياتهم الزوجية تكون أكثر سعادة واستقراراً. كما كشف تقرير نشر حديثاً في مجلة «نيوزويك» الأميركية بأن الناس الذين لا ينقطعون عن المساجد أو لهم علاقة بأي من الكتب السماوية يتمتعون بصحة جيدة وحياة مسالمة سعيدة. ويجزم العلماء بأن لقوة الإيحاء العقائدي دوراً مهماً في علاج الأمراض، وهذه المفاهيم الوجدانية قد غيرت من توجهات الطب الحديث وأحدثت به عدداً من التطورات المهمة.

وفي الختام، نتمنى أن يتحول العالم إلى واحة أمن وسلام، وذلك بتكاتف الأيدي وتكاتف الإرادة وتجانس الأفكار والمعتقدات، الأمر الذي يؤدي إلى انصهار الأجناس والأعراق حتى تختفي الحروب وتصبح لدى الأجيال القادمة مجرد ذكريات مؤلمة تدل على غباء الفرد في الأزمان الغابرة. كما نتمنى أن ينصب كل الاهتمام العالمي نحو تطوير التعليم وتطوير التقنيات لمحاربة الفقر والجوع واكتشاف مصادر جديدة للمياه. إن هذا الوضع الراقى إنسانياً يحتاج إلى إرادة دولية ورؤية جماعية، وقبل ذلك تأملات فردية نأمل أن تتحقق بحيث يصبح هذا الحلم حقيقة.